وَتَنام لِتراه

أحمد عويضة

عنوان الكتاب : وتنام لتراه
المؤلف : أحمد عويضة
المراجعة اللغوية :
الإخراج الداخلى : رشا عبدالله
تصميم الغلاف :
رقم الإيداع :
ردمك :
الطبعة :

المدير العام : هاله البشبيشى
مدير النشر: أحمد القرملاوي
مدير المبيعات : شريف الليثى

تويا
دار تويا للنشر والتوزيع

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com
دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya
@Dar_Toya
Dar.toya
(+2) 01140899887 - (+2) 01000706014
٢٦٣ ش عبدالوهاب عبد اللطيف -كوبرى القبة - القاهرة - مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

أحمد عويضة

وَتَنام لِتراه

مجموعة قصصية

قالوا عنها :

الأديبُ الكبيرُ / بهاء طاهر :

أعجبتني المجموعةُ ، لغةٌ قويةٌ وأفكارٌ جيدةٌ تم سردُها بطريقةٍ مشوقةٍ.

الروائي / هشام الخشن :

مجموعةٌ قصصيةٌ تُبرز تفوقَ الكاتبِ فيلغته الجزلة وقدرتهِ على التحركِ بين شخوصِ وأحداثِ القصص بأدواتٍ مختلفةٍ وبراعة.

د/ إيمان الدواخلي :

توكل على الله يا بني وخش برجلك اليمين.

إهداء

إلى جدي .. الشيخ أحمد عويضة

أتخيلك الآن إلى جواري ، أتحدثُ معك وأعرضُ عليك هذه المجموعة ، تنقدها وتفندها وتناقشني فيها كما كنتَ تفعلُ معي حين كنتُ أعرضُ عليك مواضيعَ الإنشاء التي أكتبها.

علمتني كيف أقرأ وأتنوع وأفكر ، وأطلق سراح الخيال وأخط ما أراه بخيالي في الأوراق.

لو كنتَ معي الآن لوجدتني أتقافزُ أمامك لتقرأ المجموعةَ ولا تنتظر للغد.

رحمك الله .

أبي وأمي .. ابتلاكما الله بمجنونٍ مثلي ، وأكرمني حين جعلكما والديَّ.. أبقاكما الله لي ولإخوتي.

الشكرُ لا يفيهم حقهم ، ولكن ينبغي أن أشكرهم على كل ما قدموه لي:

آية الله أحمد — نسمة طارق — د. إيمان الدواخلي — مصطفى عاطف — مصطفى يحيى—منار وجدي - عبدالله محمد - أميمة ماهر— محمد عبدالباسط — خلود فايق —نداء الحلوجي— أميرة عبدالفتاح.

ابتسامةُ الخزامى

«نظرتُ لملاكي النائم بجواري ، غرقتُ في وجهِها الخمري ، ذلك القمر المتكئ في كسلٍ على وسادةٍ من سحبٍ تُخفي جزءًا منه وتزيده جمالًا ، لامستُ خدها الأملسَ كبشرةِ طفلٍ بظهرِ يدي ، فانفرج ثغرُها وخرجتْ الغمازتان من مخبئهما بجواره لتزيداني عشقًا ، صاحَب ضوءَ ابتسامتِها رائحةُ الخزامى ، تنسابُ حتى تعبق جو الحجرة ، قبلتُ شفتيها بهدوءٍ لأمتص ما أقدرُ عليه من رحيقِها ، وحين ارتويتُ ، توسَّدتْ صدري ودفنتْ نفسَها في حضني لتُتشبع كل خلايا روحي برائحة الخزامى».

لم يتوقفْ هطولُ الأمطار من عينيْها منذ أنهتْ قراءةَ كلماتهِ للمرةِ الألف ، كان يُحب كتابة خواطره

في ذلك الدفترِ الأسود ، وحين طلبت منه أن تأخذه لم يتردد ، أعطاها إياه على الفور كأنه يُريد أن يطوي هذه الصفحة من حياته دون أن يكونَ لها أذيالٌ في صفحاتٍ أخرى.

تأملتْ الخاطرة طويلًا ، فحصت كل حرفٍ من حروفها ، بحثتْ بين ثناياها وتحتها عن أي إشارةٍ للغدر ، ولمَّا لم تجدْ ازداد جنونُها ، كيف يكتب هذه الكلمات وبعدها بثلاثة أيامٍ ينفصلُ عنها فجأةً ، لم تفهم حتى الآن ماذا حدث ، حمَّلت نفسَها الذنب ولامت نفسَها كثيرًا وكادت تنتحرُ لأنها أضاعته من يديْها ، على الرغم من أنها لا تعرف ماذا فعلتْ! فكرتْ كثيرًا ولم تصلْ لنتيجةٍ ، لم يحدث أي شيء ، فجأةً قرر إنهاء علاقتهما.

****

«ماما.. ما اسمُ هذه الزهرة ؟»

قالها الطفلُ لوالدته وهو ينظرُ منبهرًا لتلك الوردةِ البنفسجيةِ الجميلةِ ، ملكةٌ تقفُ شامخة الرأس وسط وصيفاتها ، لم تعرف الأم نوعها وإن أعجبتها ، قالت له: «كلها ورود وكفى.. هيا بنا». ولكن ليس بهذه السهولة ، لقد أعجبته الزهرة وقرر أن يأخذها ، أسرع

يخترق الحوض ويسحق عدة أزهار بحذائه حتى يصلَ إليها.

نظرت الزهرةُ لهذا الولد الجميل المندفع نحوها ، انبهرت به وباندفاعه وإصراره ، كانت نظراتُ الإعجاب تسيلُ من عينيْه لتروي غرورها ، تمنت أن يأخذَها من هذ الحوضِ الكريه الذي سئمتْه وسئمتْ كل من يُجاورها فيه ، سئمتْ أشكالهم وحديثهم ومزاحهم ، تمنت أن تغادرهم مع هذا الطفل الجميل لعالمه الذي لابد أن يكونَ جميلًا مثله ، أمرتْ أشواكها بالضمور حتى لا تؤذي يده ، أغمضت عينيْها وانتظرتْ في لهفةٍ رعشة جسدها حين يلمسها.

****

أحبته حبًّا جمًّا ، جعلت سعادتَه ونجاحَه هدفًا لحياتها ، تعلمت وقرأت عن الموسيقى لتساعده على تحقيقِ حلمه في أن يُصبح موسيقارًا كبيرًا يُشار إليه بالبنان ، قدَّمت له كل مالا تجرؤ فتاةٌ أخرى على تقديمه ، نظرتْ بمنظارٍ جميلٍ لا يرى أي سوء في الحياة أو في حبيبها ، جعلتْ حياته جنةً ، كانت ببساطةٍ ، عاشقةً حتى الموت.

نضرةٌ جميلةٌ كانت ، يصحو كل يوم قبلها ليراقبها وهي نائمةٌ ويشم رائحتها الجميلة ، ثم يُوقظها بتقبيلِ شفتيها ، كانت القبلةُ هي رنين المنبه بالنسبة لها ، تستيقظُ وتلمس كل شيء حولها بعصاها السحرية ليتألق ويفوح برائحتها.

حتى أتت فترةُ الذبول. بدأت تذبُل وتُستهلَك في نظره ، تفقد نضارتها ورائحتها يومًا بعد يوم ، كان يعرفُ أن هذا هو العد التنازلي لإنهاء علاقته بها ، انتظر حتى رآها ذبلت وفقدت رائحتها تمامًا ، ولم تعد تصلُح.

****

جثةٌ بنفسجيةٌ ذابلةٌ ملقاةٌ في الشارع ، تحسبها ميتةً ، ولكنها لم تمت بعد ، تركلها أقدامُ العابرين ككرة قدم دون أن تئن ، كانت مذهولةً ، لم تستوعب بعدُ ما حدث ، كيف ألقاها في الشارع هكذا ؟ لِم لَم يحتفظ بها حتى لو سئمها بدلًا من أن يلقي بها في الشارع عُرضة لأقدام العابرين ؟ امتص رحيقها واستنشق عبيرها ثم ألقاها بإهمال ، ولم يُكلف نفسه بأن يحفرَ لها قبرًاأو يلقيها في صندوق قمامة حتى تموتَ بسلام.

بدأت تفيقُ وتئن من الألم ، لم يلتفتْ لأنينها أحدٌ من العابرين واستمروا في ركلها دون أن يشعروا ، نظرتْ

حولها فوجدتْ نفسَها جوار البستان الذي اقتُطفت منه ، نظرتْ نحو حوضها واستنجدت بصديقاتِ الأمس لينقذنها ويُعدنَها وسطهم في الحوضِ مرةً أخرى ، لم تكن تعلم أن الزهرةَ المقطوفةَ لا تُزرع ثانيةً.

****

«ماما.. ما اسم هذه الزهرة ؟»

قالها الطفلُ لوالدته وهو ينظرُ منبهرًا لتلك الوردةِ البنفسجيةِ الجميلة ، ملكةٌ تقفُ شامخة الرأس وسط وصيفاتها ، لم تعرف نوعها وإن أعجبتها ، قالت له: «كلها ورود وكفى.. هيا بنا» ، ولكن ليس بهذه السهولة ، لقد أعجبته الزهرة وقرر أن يأخذها.

رأت الزهرةُ الطفلَ يندفعُ نحو حوضٍ آخر ليأخذَ منه زهرةً أخرى ، يستمتعُ بها وبرائحتها حتى تذبلَ ويلقيها ، نقلتْ نظرها بين الطفل وبين الزهرة التي تفتحتْ أوراقُها مبتسمةً وضمرت أشواكُها تنتظر أن يقطفَها.

«ياحمقاء ، مُري أشواكك بتمزيق يده ، لا تقعي في الفخ».. قالتها في سِرها ولم تنطقْ بها ، لم تُحذرها ، واكتفتْ بالابتسام.

أرشيف

خانته قدماه ، سقط على أرضِ الأرشيف المتربةِ باكيًا لاطمًا خديْه وهو ينظر للرفِّ الفارغِ الذي كان يضم كل دفاتره التي كتبَها ، كاد يُجن ، من أخذها ؟ عصرَ ذاكرتَه حتى جفت دون جدوى ، لم يأخذ أحدٌ المفتاح وليست هناك نسخةٌ أخرى.

أراحته الفكرة وأثارت جنونه ، اطمأن أن أحدًا لم يطَّلع على الدفاتر ، ولكن أين اختفت ؟

نبش الحجرةَ كلها ، أثار التراب وكاد يُزهق روحه من السعال وهو يُراجع الأوراق ، كلها أوراق عمل ، فواتير وتقارير وميزانيات ، أين إذن ما وجد في المرة الماضية ؟ كيف اختفى كل شيء ؟

***

طلب منه مديرُه أن يُرتب الأرشيفَ ويُصنف الملفات ، أعطاه المفتاح الوحيدَ قائلًاإنه من الآن عُهدته .

وقف في مدخل الحجرة ، لعن مديرَه واليوم الذي التحقَ فيه بهذا العمل وهو يتأملُ هذه المقبرةَ الأسمنتية ، يُفكر كيف سيخطو فوق هذه الأرضِ المغطاةِ بطبقةٍ من الملفات والأوراق المدفونة تحت طبقةٍ سميكةٍ من التراب ، وكيف سيأمنُ للعناكبِ التي شيَّدت قصورًا لها في الأركان. فحص كل بيوت العناكب بناظريْه متخيلًا أنه سيجدُ بينها عنكبوتًا عملاقةًتنقضُّ عليه وتمتصُّ منه رحيقَ الحياة.

شمَّر ساعديْه قائلًا: «استعنا على الشقاء بالله» ، تناول الملفاتِ الراقدةَ على الأرضِ وفتحها—وهو يخشى أن يجدَ داخلها عقربًا أو ثعبانًا - ليعرفَ في أي تصنيفٍ يضعها ، ظل يعملُ ويسعل حتى كادت روحُه تخرجُ هاربةً من الحجرة.

تجمَّد في مكانه ووقف شعْر ساعديْه وعنقه عندما سمع صوتَ ضحكاتٍ تخرجُ من إحدى الخِزانات ، فكَّر في العفاريت ولكنه سرعان ما طردها ، فهو لا يُؤمن بهذه الترهات ، تناول صندوقًا ثقيلًا واقترب من الخزانة

مترددًا ، فتحها وقفز للخلف في تحفز ، فاصطدم بصرُه بشاشةٍ تربض على أحد الأرفف تعرض مقطع فيديو.

«مَن الأحمق الذي وضع شاشةً هنا ؟»

ولكن مَن الذي شغَّلها ؟ بحث عن أي كابلاتٍ متصلةٍ بالشاشة فلم يجد ، من أين تستمد الطاقة والمقطع الذي تعرضه ؟

بدا له المقطعُ مألوفًا ، أمعن النظرَ جيدًا.. يا إلهي.. إنهم أصدقاؤه ، وهذا المقطعُ مسجلٌ لهم في شقة أحدهم ، ولكن مَن صوَّر هذا ؟ وأين هو ؟ إنه يسمع صوته ويرى حركة ذراعيه وكفه التي تستقر فيها كأس خمر ، ولكنه لا يرى وجهه ، إنه المصوِّر!! ولكن كيف صوَّر هذا وقد كان لا يملك كاميرا حتى وقتٍ قريب.

عرضت الشاشةُ مقطعًا آخر ، رأى يديْه وهي تعبثُ في جسد فتاته وهي لا تكف عن التأوُّه والتغنُّج ، انتفض كأنما سرتْ فيه كهرباء السد العالي ، تراجع للخلفِ وهو ينظرُ للشاشة في ارتياع..

«ما هذا الجنون ؟ إنها.. إنها ذاكرتي».

ارتطم في تراجعهِ بخزانة ، سقطت الملفاتُ من فوقها وسقطتْ منها بعضُ الصور ، صوره ، نبش الملفاتِ كالمجنون ، كلها صور ، كلها من ذاكرته ، انهدَّ جالسًا على أحد الصناديق ، وتابع ذكرياته المعروضةَ أمامه.

«ما كل هذه الخطايا ، لم أترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا فعلتها»

كيف نسى ؟ أعوامٌ مرَّت نامتْ فيها ذاكرتُه حتى ظنَّ نفسَه قديسًا لأنه واظب على الصلاة ، ولكنَّ القديسَ تلقى لطمةً هزَّت كيانه ووضعتْه قسرًا أمام المرآة.

«لابد أنها رسالةٌ إلهيةٌ ، أراد الله لي بها أن أُنقى من الخطايا كما يُنقى الثوبُ الأبيض من الدنس».

قام مسرعًا ، وأحضر دفترًا ليدون كل الخطايا ، ويصنفها ليكفر عنها ، مسح التراب عن الدفتر بثوبه ، وكتب حتى اسودت صفحاته ، أحضر دفترًا آخر فثالثًا!

صنَّف خطاياه إلى صغيرةٍ وكبيرةٍ ، ثم صنَّف الكبائرَ إلى حق الله وحق الناس ، وقرر البدء بحقوق الناس لأن الله لا يُسامح فيها ويُسامح في حقه هو ، خبَّأها داخل خِزانة حتى يفرغَ لها قريبًا.

مرَّت فترةٌ من الزمن، نسي فيها ما حدث، أو أُنسي، حتى طلب منه مديرُه أن يحضرَ له ملفاتٍ، فتذكر الدفاتر ودخل الأرشيفَ ليخرجها وينفذ ما اتفق عليه، فوجد الخزانة فارغةً.

****

عيناه مشدودتان إلى الخزانة الخاوية، يذرف دموعَه نادمًا على إضاعةِ فرصةِ عمره، لماذا اختفت؟ هل وضعها الله ليثبتَ له أنه ليس أهلًا لها؟ وكيف للإله الرحيم أن يعذبه هكذا؟ جعله يفيق ويشعر بأن الفرصةَ سانحةٌ للعودةِ، وما أن تهيأ للركض حتى قطع عليه الطريق.

«أعلنتُ توبتي وندمي، واستعددتُ لرد المظالم، فلِم قطعتَ عليَّ الطريق؟»

ظل يُفكر، حتى أُجهِدت خلايا عقله وروحه، فافترش الأرض المتربة ونام.

أفاق من نومه بعد ربع ساعة لا أكثر، انتفض واقفًا قد انفرجت أساريرُه وأخذ يرقصُ وهو يقول: «غُفِر لي.. غُفِر لي».

استمرَّ في رقصهِ حتى وجدَ جدرانَ الأرشيفِ تهتز ، والملفاتِ تسقطُ من فوق الخزائن ، انتفض وركض نحو البابِ ليهربَ فلم يجده ، انهارت الجدران ووجد نفسه على مقعدٍ جلديٍّ وثيرٍ ، في حضنه فتاةٌ ، وأمامه كأسُ خمر.

الجدار

نظرَ إلى جدارِ الحجرة ، لونُه كئيبٌ جدًّا ، ولكن.. من منهما أكثر كآبةً ؟ الجدارُ أم حياته ؟

الجدارُ متلاحمٌ مع رفيقيْه ، الجدارين الآخرين ، تلاحمًا تامًّا من بدايةِ الخلق حتى الفناء ، لا تفترقُ إلا بزلزالٍ شديدٍ.

أما هو.. جدارٌ وحيدٌ نبتَ في صحراءَ قاحلةٍ ، جدارٌ مليءٌ بالندوبِ والتشققاتِ ، جدارُ غرفته مصقولٌ لامعٌ.

لماذا يظل هذا الجدارُ مصقولًا وهو مليءٌ بالندوب ؟

هبَّ من رقدته وأحضر مطرقةً.. بدأ يضربُ في الجدارِ بكل قوته ، يقفز يمينًا ويسارًا وهو يضربُ..

ظل يضربُ ويضربُ حتى خارت قواه وانهار على ركبتيْه ، يكادُ يلفظ روحه وهو يشهق.

سمع ضحكةً قويةً.. قهقهةً ساخرةً عاليةً ، نظر لمصدرها فوجده الجدار..مصقولًا لامعًا.

الحاج عبَّاس

عادت لمنزلِها أخيرًا بعد يومٍ مرهقٍ ، ما أن دخلته حتى شعرتْ كأنها عادتْ لبطن أمها حيث السكينة والهدوء ، وقفتْ تلتقطُأنفاسَها وتُمني نفسَها بحمامٍ دافئٍ ونومٍ عميقٍ حتى الصباح ، خلعتْ جميع ملابسها ووقفت عاريةً تتأملُ جسدَها في المرآةِ ، كانت تشعرُ أن جسدَها غريبٌ عنها ، حدثتْبه تغيراتٌ كبيرةٌ ، ولكنها ظنَّت أن هذا بسببِ الإرهاق الذي تعيشه باستمرارٍ منذ انتقلت للعيشِ في القاهرة.

وقفتْ في حوضِ الاستحمام ، مستسلمةً تمامًا لشلالِ الماءِ الدافئ المنهمر ، تستمتعُ به وهو يُدغدغها ويزيح عنها إرهاقَ اليوم. بعد أن تشبَّعت بهذا الإحساسِ ، بدأتْ تغسل جسدها ، مرَّت يدها على

خدها وهي تغسلُ وجهها ، فتسمَّرت يدُها ثم عادت تُمررها مرةً أخرى ببطءٍ شديدٍ لتتأكدَ مما أحسَّت به ، اتسعت عيناها رعبًا وانتفضت واقفةً لتنظرَ إلى وجهها في مرآةِ الحمام ، تذكَّرت أنها لم تشترِ مرآةً جديدةً بدل التي كُسرت ، فلعنت الإهمال وهي تركضُ إلى حجرتها.

وقفت أمام المرآة ، تتمعَّن في وجهها جيدًا ، لم يكن إحساسُها خاطئًا ، إنها شُعيراتٌ صغيرةٌ تنبتُ في ذقنها بالفعل ، شُعيراتُ مراهقٍ حديثِ البلوغ.

تهالكت ذاهلةً على الأرض. الآن بدأتْ تفهم التغيرات التي حدثت لجسدها الفترة الماضية.. خشونة صوتها التي لم يفلح معها علاجُ الأحبال الصوتية ، جسدها الذي أصبح أقسى وعضلاته التي صارت أقوى ، ضمورُ ثدييْها الذي لاحظته عندما اكتشفتْأن جميعَ سوتياناتها صارت أوسع ، وأرجعت هذا إلى رداءةِ النوع الذي تشتريه ، بالإضافةِ إلى وجهها الذي أصبحتْ قَسَماتُه أقسى قليلًا وكانت تظن أن هذا بسببِ وزنها الذي فقدته الفترةَ الأخيرة ، والآن تلك اللحية النابتة.

****

على الرغم من جمالِها ورقتها كان أهلها وأصدقاؤها دائمًا يقولون عنها إنها رجُل ، فهي لا تصمتُ وتكتفي

بالبكاء مثل الفتياتِ إن ضربَها أو سبَّها أحدُ إخوتها ، بل تقومُ كالذكور وتضربُ من ضربها ضربًا ذكيًّا موجعًا على الرغم من أنها ليست قويةً بدنيًّا.

في أحدِ الأيام في الجامعة ، استفزَّها أحدُ أصدقائِها بمزاحٍ سخيفٍ ، وعندما سبَّته دفعها بيدهِ فاصطدمتْ بالجدار ، اشتعلتْ غضبًا وضربته بركبتِها بين فخذيْه فسقط يصرخُ ويتلوى على الأرض وانفجر جميعُ الموجودين ضحكًا وشاركتهم هي ضحكهم ولم تخف من ردِّ فعله.. يومها قال لها أصدقاؤها: «إنتي عليكي عفريت اسمه عباس.. بيظهر لما تتعصبي» ، ومن وقتها وكلما تعصبتْ ضحك أصدقاؤها قائلين: «الحاج عباس وصل.. ربنا يستر» ، وكانت تضحكُ معهم وتتمادى في دورِ الرجل أكثر وأكثر.

بعد أن أنهت دراستَها الجامعيةَ انتقلتْ إلى القاهرةِ لتُحقق حلمهَا في أن تصبحَ صحفيةً كبيرةً ، اعترض والداها على أن تعيشَ في شقتهم بالقاهرةِ بمفردها ، ولكنهما ما لبثا أن رضخا أمام طموحها وإصرارها على تحقيق حلمها ، وخفَّف من الاعتراض ثقتُهما الشديدةُ فيها وفي عقلها الراجح.

التحقتْ بالعمل كصحفيةٍ تحت التمرين في إحدى الجرائد الصغيرة ، وفي نفس الوقت التحقتْ بالدراساتِ العليا في كلية الآداب قسم الصحافة ، كانت حياتُها في القاهرة ممتعةً جدًّا ، وكان شعورُها باستقلالِها وتحملِها مسئوليتها يُسكرها. لم يُعكر صفو حياتها إلا معاناتُها في المواصلات ، وخاصةً المترو ، الذي لابد أن تستقله يوميًّا لتذهبَ إلى عملها أو كليتها.

كانت تحرصُ دومًا على استقلالِ عربة السيدات في المترو حتى لا تتعرض لأي مضايقاتٍ ، ولكنها كانت أحيانًا تضطر لاستقلالِ إحدى العرباتِ المشتركةِ لأن الوقتَ لا يسعفها لتذهبَ لعربةِ السيدات ، أو لأن عربة السيدات لا مكانَ فيها لبعوضةٍ.

في إحدى المرَّات التي استقلت فيها عربةً مشتركةً ، هالها التصاقُ الرجال بها من كل الجهات رغمًا عنهم بسببِ الزحامِ الشديد ، وشعرتْ بالشخصِ الملتصقِ بها من الخلفِ يتحركُ كثيرًا ، حاولتْ أنْ تتملل في وقفتها أو تتحركَ من مكانها لكنها لم تستطعْ بسبب الزحام ، بعد قليلٍ شعرتْ بيدٍ تتحسسُ مؤخرتها ، تعتصرُها وتعبثُ بها ، انتفضتْ وكادتْ تصرخ ، ولكنها تذكرتْ تلك الفتاةَ المسكينةَ التي صرختْ عندما شعرتْ بمن يتحرشُ بها واستنجدتْ بالناس حولها ، وما كان من

المتحرشِ إلا أنْ سبَّها بأقذعِ الألفاظِ وضربَها ، وقال الناس الواقفون حولهما إن الرجل لم يفعل شيئًا واتهموها بأنها عاهرةٌ.

زاد العبثُ في مؤخرتِها.. دمعتْ عيناها وهي تُفكر في كيفيةِ الخروج من هذا المأزق ، انتظرتْ حتى توقفَ القطارُ في أول محطةٍ ، رفعتْ رجلها وهوتْ بكعبِ حذائِها بكلِّ قوةٍ على قدمِ ذلك المتحرش حتى كادت تخترقه ، صرخ صرخةً عاليةً ، وقبل أن يتم صرخته ويتساءل الناسُ كانت قد غادرت القطار مع أفواجِ المغادرين ، جلستْ في المحطةِ تبكي بحُرقةٍ وقررت ألا تذهبَ لعملها ذلك اليوم.

عندما عادت لبيتها ، وقفتْ تحت الدُّش تدعك جسدها بعنفٍ كاد يُدميه كي تنظفه من دنسِ تلك اليد القذرة التي كانت تعبثُ بها ، بعد أنْ هدأتْ تذكرت العقاب الذي ناله هذا المتحرشُ ، ضحكتْ كثيرًا وصرخاته تتردد في أذنيْها ، وقررتْ أن تشتري كل أحذيتها من ذواتِ الكعوب العالية الحادة ، حتى تُذيق كلَّ مَن يقتربُ منها نفسَ الألم الذي ذاقه ذلك القذرُ.

بعد هذا الموقفِ العصيبِ الذي تعرَّضت له ، قرَّرت استحضارَ «الحاج عباس» في كل مرةٍ تضطر فيها لاستقلال عربةٍ مشتركةٍ في المترو ، لأن الرقةَ والأنوثةَ أصبحتا سلاحًا قديمًا لا يُجدي ، أصبحتْ تتصرفُكالرجال ، تدفعُ بكتفها ومرفقها يمينًا ويسارًا حتى تتمكنَ من الجلوس أو الالتصاقِ بجدارِ العربة لتحمي مؤخرتَها من عبثِ العابثين ، تقفُ متربصةً كهرةٍ وحشيةٍ ، مستعدةٍ لتمزيقِ كل من يُفكر أنْ يمسها ، وما أنْ تُغادر المترو حتى ينصرفَ «الحاج عباس» عنها وتعود الفتاة الرقيقة الجميلة كما هي.

****

ظلت متهالكةً على الأرضِ لا تدري ما تفعلُ ، فكَّرت أنْ تحكي لسارة ، صديقتها المقربة عن هذه المحنةِ وتستشيرها في ما يُمكن أنْ تفعله لتتخلصَ من الحاج عباس ، زارتها في بيتِها لتتحدثَ معها ، قابلتها سارة بملابس النوم كالعادة ، عندما رأتْ جسدَها المثيرَ في ملابسِ النوم وقبَّلتها أحسَّت بالشهوةِ تُشعل جسدَها ، فزعت من هذا الإحساسِ المشينِ وقرَّرت الانصرافَ فجأةً ولم تعبأ بتساؤلاتِ (سارة) التي وقفتْ مندهشةً منها ، وبعدها اتصلتْ بها عدة مراتٍ لتعرفَ ماذا بها ، ولكنها لم ترد.

دفنتْ نفسَها في فراشِها ، تبكي بحُرقةٍ وترثي نفسَها على الحال التي أصبحتْ عليها ، نعم لقد أحبَّت دور «الحاج عباس» وأحبَّت أن تتصرفَ مثل الرجالِ لتُدافع عن نفسِها ، كانت سعيدةً بهذا الدور الذي يكفلُ لها الحمايةَ من الأوباشِ ، ولكن الحمايةَأصبحت استعمارًا ، فقد أعلن الحاج عباس الوصايةَ عليها ، جلس على عرشِ كينونتها وانتشرتْ قواتُه داخلها ، فأصبحتْ لا تنتشي بقبلاتِ حبيبها ، بل تشمئزُّ منها شاعرةً أنها تُقبل شخصًا من نفسِ نوعها ، وتشتهي صديقتها! ولم يكتفِ بهذا بل صار يطوِّع جسدَها ويُغيره ليتلاءم مع وجودهِ الجديد الدائم ، تحوَّلت نفسيًّا لرجلٍ ، وها هي ذي في طريقها للتحولِ الجسدي أيضًا ، عما قريبٍ ستُصبح بالفعلِ «الحاج عباس».

الكهفُ الأزرق

تعب كثيرًا من نفسِه ومن حياتهِ ، نسي معنى الراحة والهدوء.

كان يُناجي نفسَه قائلًا: « كل شيء افتراضي سخيف ، عملي وأصدقائي وحتى زوجتي ، لا أحد منهم حقيقي ، تعبت من تمثيل أنني أحيا حياةً حقيقيةً دون أن أشعر بهذا» .

رحلةٌ إلى الكهفِ الأزرقِ هي ما يحتاجه.

ذلك الكهفُ الذي قضى به عدةَ ساعاتٍ ذات مرةٍ لقتلِ الملل وشعر عندها أنه وجد نفسَه أو جزءًا منها ، ومن يومِها وهو يتوقُ إلى رحلةٍ أخرى ، رحلةٍ تستغرقُ

عدة أيامٍأو أسابيع ، يعرفُ فيها نفسَه حقًّا ليعرفَ حياتَه وواقعَه ويقدر على تغييره.

قرر أن يقومَ بالرحلةِ ، ثم عاد عن قرارِه للمرةِ العاشرةِ على الأقل ، لا يعلم لم لا يملكُ الجرأةَ للقيام بها. هل يخشى معرفةَ نفسِه إلى هذا الحد ؟

قرَّر أخيرًا أن يقومَ بالرحلةِ. جمع أهله وأصدقاءَه ليخبرَهم بقرارِه حتى لا يتراجعَ مرةً أخرى. بكت زوجتُه واتهمته بأنه أناني ، انتقده أهله وأصدقاؤه كثيرًا ، ولكنه لم يتوقف عند انتقاداتِهم. أخبرهم بأنه لن يتأخرَ كثيرًا وعندما يعودُ سيجدون أنه على حقٍّ فيما فعل.

كان مشهدُ الرحيل مهيبًا ، كجنازةٍ ميتُها يمشي في مقدمتها على قدميْه ، تمشي بجوارِه زوجتُه وهي تنظرُ له من خلال دموعِ عينيْها المنهمرةِ وتترجاه أن يعودَ عن قراره لأنها بحاجةٍ إليه ، يحتضنُها ويُطمئنها ولكنها تتملص من حضنه وتبتعد عنه ، ثم تعودُ له لتتوسلَ من جديدٍ ، تتوسل أحيانًا وتتوعدُ أحيانًا وهو لا يستجيب.

وصلوا إلى حافةِ المنطقةِ المحرَّمةِ المحيطةِ بالكهفِ والتي لا يعرف أحدٌ كيف يدخلها إلاه ، وقف ينظرُ إليهم مترددًا ، لو حاولوا إثناءه مرةً أخرى سيستجيبُ لهم

ويعودُ معهم ، ولكنهم صمتوا مُقتنعين بأنه لن يعودَ عن قراره بعد أن وصلَ هنا ، قالوا له إنهم سينتظرونه فارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ مرتجفةٌ حاول أن تكونَ مشجعةً وأخبرهم أنه لن يتأخرَ كثيرًا وركض باتجاه الكهفِ الأزرق.

اجتاز مدخلَ الكهفِ الضيق ، ووصل إلى براحهِ ، وقف يتأملُ جدرانَه الزرقاءَ وأرضَه ناصعةَ البياض ذات الإضاءةِ الذاتية التي لا يُعرف مصدرُها ، كان كهفًا جميلًا يبعثُ على الاسترخاءِ ، فرقد على الأرض محاولًا الاستغراقَ في التأملِ أو النوم.

أفاق فزعًا على هزة وصوت جرس يدوي ، نظر حوله متوقعًا أن يرى انهيارَ الكهفِ على رأسِه ولكن شيئًا لم يحدث ، كان كل شيء ساكنًا كما تركه فظن أنها أضغاثُأحلام.

جلس متأملًا كأنه راهبٌ بوذي ، مسترخيًا يراجعُ تفاصيلَ حياته السابقة كي يجدَ موطنَ الخطأ أو بدايةَ الخيط الذي يوصله إلى مبتغاه ، لا يعلمُ كم ظل على هذه الحالةِ حتى أخرجه منها صوتٌ يتحدث معه.

فتح عينيْه ليرى مُحدِّثه ولكنه لم يجده ، بل وجد مكانه ظلًّا على الجدارِ هو من يتحدثُ معه ، فزع

منه وابتعد ولم يرد ، ضحك الظلُّ ساخرًا من خوفه وبدأ يكتسي بالألوانِ حتى أصبح صورةً ، ثم هدّأ روْعُه وأخبره أنهم أناسٌ مثله في كهوفِهم الزرقاء وهذه هي طريقةُ التواصل بينهم وأنه هو أيضًا يظهر عنده كظلٍّ أو صورةٍ على جدار الكهف.

بدأ يتجاذبُ معه أطراف الحديث ويضحك ، أصبح تدريجيًّا صديقًا مقربًا له ، علَّمه الكثيرَ عن حياةِ الكهف الأزرقِ وخباياها الممتعة. كيف يتحدث مع الأصدقاء وكيف يبحثُ عنهم ، كيف يفتحُ خطوط الانتقال بينه وبينهم كي يتمكنوا من زيارته ويتمكن هو من زيارتهم ، بدلًا من الحديثِ إلى صورِهم أو خيالاتِهم فقط.

تدريجيًّا بدأ يشعرُ أنه في عالمه الحقيقي ، عالمٌ بلا كذبٍ ولا مراء ، لا أقنعة. الكل يتحدثُ كما يشاءُ وقتما يشاء في أي موضوعٍ يشاء ، عالم دون قيود ، لم يكن يُنغص عليه صفو حياته سوى شعورِه بأنه عالمٌ شبحي غير حقيقي ، لا يشعر بثقل الوجود الحقيقي للناس وللأشياء في هذا العالم ، ولكنه رد على نفسه بأنه تعوَّد على الثقل معتقدًا بأنه ثقلُ الوجود الحي ، ولكنه ثقل الكذب والنفاق ، وأن عالم الكهف الأزرق خالٍ من هذه الصفات القبيحة ، ولهذا يتسم كل شيء فيه بالخفة.

نسي كل ما ومن ينتظره في عالمه السابق وانغمس بكل كيانه في هذا العالم ، حتى أتى يومٌ لم يجد أصدقاءه المقربين حوله. شعر بأنه سجينٌ وأخذ يدورُ في الكهف ويتنقلُ بين كهوفِأصدقائه عدة أيام دون أن يجد لهم أثرًا ، عندها وبدافعٍ من الغضب قرر أنْ يُغادره ويعود لعالمه السابق.

آلمه سقوطُأشعة الشمس على وجهه لحظة خروجه من الكهف الأرزق ، وقارن بينه وبين رقة وجمال الضوء الأبيض الذي ينبعث من أرضيةِ الكهف وفكَّر في العودة إليه ثانية ، ثم تذكر الأيام التي قضاها يتعذب وحيدًا داخله فعاد عن فكرته.

خرج من المنطقة المحرمة ولم يجد أي أثر لزوجته وأصدقائِه الذين قالوا إنهم سينتظرونه هنا ولن يعودوا للمدينةِ بدونه.

عاد للمدينةِ يبحث عنهم فوجدها شبه خالية ، لا يوجد بها إلا العجائز والشيوخ والأطفال ، ركض إلى بيته ليرى زوجته فوجد البيت خربًا كأن بشرًا لم يدخله منذ سنوات ، خرج منه مهرولًا ذاهلًا يتأمل آثار الخراب التي احتلت المدينة.

طاف يسأل العجائز عما جرى. هل اجتاح المدينة وباءٌ قضى على الشباب؟ أم أن جيشًا هو من فعل ذلك؟ ولكنهم كانوا ينظرون إليه بامتعاضٍ ولا يُجيبونه ، ظل يطوف أيامًا ويسأل حتى رد عليه أحدُ الشيوخ أخيرًا بأن الذنب ذنبه هو ، فكل الناس قد اتجهوا إلى كهوفٍ زرقاء واتخذوها مساكنَ لهم ليبحثوا عن ذواتهم ، بعدما وجدوا أنك هجرت المدينة مفضلًا عليها كهفك.

ركض مسرعًا عائدًا إلى كهفه الأزرق كي يبحثَ عنهم ويقنعهم بالعودة إلى المدينة ليعيدوا لها الحياة ، وما أن دخل الكهف وأضاءت الأرض إضاءتها البيضاء حتى شعر بالهدوء والسلام يسكنان روحه وكاد أنْ ينسى ما جاء من أجله.

جلس على الأرض يبحث عن أهله فوجد أن أصدقاءه الكهفيين قد اجتمعوا في كهفه منذ عدة أيامٍ يبحثون عنه ، ففرح كثيرًا وعرف عندها من هم أصدقاؤه الحقيقيون الذين يبحثون عنه ويهتمون به ومن الذي يمثل أنه صديقه ، استغرق في الحديث معهم مستمتعًا ونسي ما لا يجب أن يُنسى.

المُرجيحة

لفظتهُ دوامةُ أفكارِه واقفًا أمام الساحة الخالية ، حيث كان يُقام احتفالُ المولد قديمًا ، تُنصَب الألعابُ ومسارح الحواة والعروض ، دغدغت الفرحة قلبه عندما تذكر تلك الأشياء التي كان يستمتعُ بها قديمًا ويحنُّ إليها كثيرًا.

ظلَّ يدور في الساحةِ الخالية محاولًا أن يتذكر أماكن كل لعبةٍ من الألعاب التي يعشقها ، توقف طويلًا أمام بقعةٍ يُظن أنها كانت مقام المرجيحة ، تلك التي على شكل مركب.

امتلأت الساحةُ فجأةً بكل الألعاب ، وعادَ طفلًا يلهو مع أصدقائِه ، يشاهد الألعاب ولا يلعب ، فهو يخافُ كثيرًا من هذه الألعاب ، خاصةً المرجيحة المركب.

يشاهد الأطفال والشباب وهم يركبونها ، يثنون أجسامهم ثم يفردونها ضاغطين بأقدامهم على أحدِ طرفي المركب لتقطع مسافة أكبر في مسارها الدائري الرأسي ، ومع كل ارتفاعٍ ترتعدُ فرائصُه ، حتى ينجحَأحدهم في أن يجعلها تتم دورةً كاملةً ، عندها يُغمض عينيْه رعبًا متخيلًا الحوادث التي ستقع لهم. خياله الخصب كان سبب مأساته ، يتخيل دومًا أن هؤلاء المجانين ستنزلق أيديهم ويسقطون ، أو أن مفصلات المرجيحة ستتفكك وتسقط بهم ، وفي كل الأحوال ستُدق أعناقُهم ، يتخيل وينتظر الصرخات ، ويفتح عينيْه على صرخات وقهقهات الفرحة والمتعة ، لا يفهم كيف يستمتع هؤلاء الحمقى بهذه اللعبة.

أصبح أصدقاؤه يذهبون للمولد بدونه ، لا حاجة بهم لهذا الكئيب الذي يُنكد عليهم ويُحاول دائمًا أن يمنعهم من الألعاب التي يُحبونها ، ويريدهم أن يحتموا معه بعيدًا في مكانٍ آمنٍ ليتفرجوا عليها ، لا يكتفي بالخوفِ من اللعب ، بل يخافُ أيضًا إن وقف يشاهدهم عن قرب أن تخرج إحدى الألعاب عن مسارها وتدهسهم.

عندما علم بهذا لم يتوقف عن البكاء ، غضب منهم لأنهم لا يقدِّرون خوفه عليهم ، ولا يفهمون أنه محقٌّ

في خوفه ، لا حاجة بنا لهذه المتعة التي قد تُميت أو تُصيب بعاهةٍ مستديمةٍ ، ما حاجتنا للمخاطرة ، إنْ كانت هناك متعةٌ آمنةٌ ؟

ذات يومٍ استقر في مكانه الآمن يُراقب تلك الألعاب الخطرة ، لعبة الساقية ذات السلاسل والساقية الرأسية ، ثم استقر بصرُه على المرجيحة ، ظل يراقب اللاعبين وهم يلعبون بجنونٍ ويضحكون بصخبٍ شديدٍ ، يُشاهد ويتخيل ويرتعب ، يضحكون ويتخيل ويرتعب.

بعد أنْ خفَّ عددُ رواد المولد قليلًا خرج من مكمنه واتجه إلى المرجيحة ، ركبها وبدأ يلعب كعادته ، يتحرك بها هادئًا لا يرتفع ، كي لا يتضرر كثيرًا إذا انفصلت أو انزلقت يداه ، ولكن هذه المرة يلعبُ بفتورٍ دون متعةٍ حقيقيةٍ ، وشعر أن كل من حوله بمن فيهم صاحبُ المرجيحة ينظر له بملل ثم يصرف نظره عنه إلى باقي الألعاب ليتفرجَ عليها.

لم يشعر بنفسه وهو يزيد من حركةِ المرجيحة وارتفاعها ، يثني ويفرد رجليْه ليدفعها أكثر ، وتزداد متعته ، حتى اتخذ قراره المجنون وزاد من دفعها كي تدورَ دورةً كاملةً ، كلما زاد دفعه زادت خفقاتُ

قلبه حتى كاد أن يلفظه ، ولكن شيئًا داخله جعله لا يتوقف ، استمر في الدفع حتى أصبح في وضعٍ رأسيٍّ مقلوب.

شعر أنه توقف ساعاتٍ في هذا الوضع وتوقف قلبُه رعبًا ، أغمض عينيْه بشدةٍ كي لا يرى ما سيحدث له ، ثم فتحهما ثانيةً لما وجد أن الخيال ينشط بإغلاق الأعين ، نظر للدنيا وهو في القمة مقلوبًا وقبل أن يستوعب وضعه هبطت المرجيحة مكملة الدائرة ، وسط صرخاته ، صرخات وقهقهات الانتصار التي أطلقها دون وعي وهو يزيد من دفعه لها ليدورَ مراتٍ ومراتٍ ، ينتقم من المرجيحة ومن إحساس الخوف داخله ، ويشعر أكثر بطعم الانتصار.

اختفت الأضواءُ والضجة ، عاد لموقفهِ الأول مبتسمًا ابتسامةً مريرة..

غرَّه انتصارُه على المرجيحة وعلى خوفه ، استعذب طعمه في فمه وأقسم ألا يفارقه بعد اليوم ، ظنَّ أن القوانين واحدة ، وأن ما ينطبق على المرجيحة الصغرى ينطبق على الكبرى أيضًا.

دار حتى سئم الدورانَ وقرَّر أن يبقى في القمة ، عندها أدرك القانون الحقيقي: كي تبقى في القمة لابدَّ

أن تكون مقلوبًا ، معلقًا من قدميْك كالخفاش بحبالٍ لا تعرف من يُمسك بها ولا متى يقرر أن يتركها.

استمرأ الوضع وأعجبه البقاءُ في القمة ، وكلما زاد بقاؤه في القمة هبط الدم إلى رأسه أكثر مصيبًا عينيْه بالعمى ، أصبح لا يرى سوى اللون الأسود ، وهو الذي كان يُفتَن بجمال الألوان ورقصها معًا ، أصبح الآن يعتمد على أذنيْه ، كخفاشٍ حقيقي.

معلَّقٌ في القمةِ من قدميْه. مقلوبًا ينتظر أن تهبط المرجيحةُ مكملةً دائرتها ، أو تُترك الحبال ويُدق عنقه.

إيكاروس

ذلك الماكرُ الذي يُنبت لك جناحيْن تُحلق بهما في سمائِه.. عندها تظن أنك نسرٌ وترتفع ، وما أن تبلغَ علوًّا شاهقًا حتى تنشق لك السحب الجميلة عن شمسٍ حارقةٍ ، تحرق جناحيْك وتسقط من علوك الشاهق لقاع وادٍ سحيقٍ. تتمنى أن تموتَ بسكتةٍ قلبيةٍ حتى لا تظل منتظرًا لحظة ارتطامك المروع بقاع الوادي ، أو تموت بمجرد ارتطامك دون أن تشعر بالألم ، يكفيك ألم الانتظار الذي تكابده أثناء سقوطك ، ولكنه ماكرٌ ساديٌّ يأبى إلا أن يعذبك ويتلذذ بتعذيبك.

«بحبَك»...

طالما تمنى وسعى أن يسمع منها تلك الكلمة ، وعندما قالتها أخيرًا انتفض قلبه مطلِقًا طاقة عشقٍ

تكفي العالم ، أقسم أنه لم يسمع قط صوتًاأجمل من صوتها حين قالت له (بحبك) ، هل استبدلت أوتارها الصوتية بأوتار قيثارة ؟ أم أن الكلمة نفسها هي التي جعلت صوتها كصوت القيثارة ؟.. ظن أنه تخيَّل سماع هذه الكلمة وأنها لم تقلها ، طلب منها أن تُعيدها ليتأكد أنه لا يحلم ، رفضت بدلالٍ وعندما ألحَّ في طلبه قالتها له على استحياء.

إنها حقيقة إذن وليست حلمًا. ليتها قالتها أمامه وليس عبر الهاتف ، أقسم أنها لو كانت أمامه وقتها لأودع كل ما يعتمل في صدره من فرحٍ وحبٍّ في قُبلة.. قُبلة واحدة ينقل لها بها كل ما يجيش في صدره.. قُبلة تمتد أبد الدهر ، ينهل بها من رحيق شفتيها ليروي ظمأه الذي لا يرتوي ، ينفصلان بها عن العالم كله.. أجَّل حلمه بهذه القبلة حتى يراها.

ظل فترة صامتًا ، كثرة المشاعر التي تعتمل في صدره جعلته لا يقوى على الرد ، استجمع قواه وقال لها إنه يعشقها.. لم يعشق سواها.. طالما تمنى أن يسمع منها هذه الكلمة. قالت له إنها تحبه منذ فترة طويلة ، ولكنها كانت خائفةً وخوفها هو ما منعها من الاعتراف له بحبها ، وأنها كانت دومًا تتصل به ليلًا

لتسمعَ صوته قبل أن تنامَ لأنها لا تنامُ مطمئنةً وسعيدةً إلا بصوته القوي الدافئ.

شعر بأن وزن عظامه يخف ، وبجناحيْن ينبتان له ، فرد جناحيْه وقفز طائرًا في فضاء الحب ، طار في سماءٍ تتناثرُ فيها سحبٌ بيضاء قطنية تزيدها جمالًا ، نظر جيدًا إلى السحب وجدها تتحرك لتنتظمَ في شكلٍ معين.. شعر أن السحب تبلغه رسالة منها ، تبلغه أنها تنتظره فوقها ، ليبدآ حياتهما الجديدة فوق هذه السحب بعيدًا عن العالم والناس ، حياتهما الجديدة الأبدية في فضاء الحب.

بدأ يرتفعُ كنسرٍ شامخٍ نحو هذه السحب ، أقسم أن يصلها مهما طال الوقت وكلفه الأمر ، ولو كلفه حياته.. ظل يطير لمدةِ يومين نحوها دون أن يشعر بتعب أو ملل ، صورةُ حبيبته وصوتها الماثلان دومًا في مخيلته لا يسمحان له بتعبٍ أو مللٍ.

يتصل بها ولا ترد.. كرر الاتصال كثيرًا ليروي ظمأه بصوتها ، ولكنه لم يسمع سوى صوت الرنين المقيت ، أحسَّ بالقلق ، ترى ماذا حدث ؟ أرسل لها عدة رسائل ، إلى هاتفها وبريدها الإلكتروني وتأكد أن جميعها وصلت إليها. وانتظر ردهاعلى رسائله بلا جدوى. عبثًا حاول

أن يصلَ إليها وعبثًا حاول أن يهدأ.. استرجع كل ما حدث بينهما في اليومين الماضيين ، فتش عن كلمةٍ أو تصرف أحزنها ، ولكن ، لقد نامت أمس على صوته وكان آخر ما قالته أحبك.. ما الذي حدث إذن ؟ هل حدث لها مكروه ؟ طرد هذه الأفكار من رأسِه وحاول أن ينشغلَ بأي شيءٍ حتى يأتيه ردٌّ منها.

كاد يُجن عندما مرَّت الساعاتُ الثقيلة دون رد.. أرسل لها رسالةً أخرى وأقسم أنها آخر رسالةٍ يُرسلها لها ولن يرسلَ أخرى إن لم ترد ، أرسلها وانتظر....

قفز قلبه عندما أعلن هاتفه عن وصولِ رسالة ، فتح الرسالة وجدها منها....

سقط الهاتفُ من يده وتحوَّل هو إلى تمثالٍ صخريٍّ لا يتحرك ، وبدأت الدموعُ تلمع في عينيْه.

ماذا حدث ؟ كاد يصل أخيرًا بعد تعبٍ وعناء ، وما أن أصبح على مرمى حجرٍ منها حتى انفرجت ستائرُ السحب عن شمسٍ حارقةٍ.

في لمح البصر احترق جناحاه وصارا رمادًا تذروه الرياح ، وجد نفسه يهوي من علوه الشاهق ، نظر

للأسفل فلم ير الأرض التي سيموت من جراء الارتطام بها ، ألهذا الحد ارتفع ؟

تمنى أن يموتَ بسكتةٍ قلبيةٍ من هول السقوط ورعب الارتطام بالأرض ، حتى لا يشعر بألم تكسير عظامه ، يكفيه الآلامُ البشعةُ التي يُكابدها من مجرد التخيل ، هل كان هذا أيضًا هو ما تمناه (إيكاروس) لحظة ذاب شمع جناحيْه الصناعيين وسقط ؟ هل كان جناحاه من صنع يديْه فعلًا أم أنبتهما الحب مثل جناحيه ؟

فقد الأمل أن يسكت ذلك الملعون في صدره ويتوقف عن النبض للأبد ، لا مفر إذن من الارتطام العنيف ، تمنى أن يموت لحظة الارتطام مباشرة قبل أن يشعر بالآلام الناتجة عنه ، ولكن هذا الماكر السادي أصرَّ أن يبقيه حيًّا لحظة سقوطه ، وكأنه لا يكفيه ما يُكابده الآن من عذاب الانتظار والتخيل.

ظهرت الأرض أخيرًا ، أرضٌ صخريةٌ قاحلةٌ ، أبَعد الحياة وسط الأنهار والحدائق الغناء ، وبعد أن وصل للسحب تكون نهايته في هذه الأرض القاحلة ؟

تجمَّدت كل مشاعره وأحاسيسه ، نظر إلى الأرض وقد تحولت عيناه لكرتيْ زجاج ثابتتين لا ترمشان..

الارتطام وشيك.. ظل ينظر بثباتٍ وانتظر....

مرت اللحظاتُ التي تفصله عن الأرض كما لو أنها ألف عامٍ من الانتظار ، ثم حدث الارتطام ، جسده كله يئن ويصرخ من الألم ، لكنه ظل صامتًا ، كما لو أن جسد شخصٍ آخر هو ما تكسَّر.

استمر صمته طويلًا...

ثم انفجر ضاحكًا.

بَيْدَق على رقعة الحياة

رغم مرور السنوات لم أنسَ ذلك اليوم الذي زارني فيه ، كنتُ في بداية حياتي العملية ، حصلتُ على الماجستير في الطب النفسي ، وتمكنت أخيرًا من فتح عيادة. بعد عدة أيامٍ من افتتاح العيادة زارني. شيخًا يتأرجحُ في العَقد الرابع من عمره ، نعم كان شيخًا ، جسدُه في العَقد الرابع من عمره وروحُه تجاوزت المائة عام.

وسيمًا أنيقًا كان ، شيب فوديْه أعطاه مظهرًا جميلًا ، مظهر من خبر الحياة وفهم ألاعيبها وفي الوقت نفسه لم يشِخ حتى يصبحَ مجرد خبرات في ثياب إنسان ، ولكن ما لفت انتباهي حقًّا هما عيناه ، مطفأتان لا تبرقان ببريقِ الحياة ، عينان تعودتا على الحزن

والانكسار حتى أصبحا هما السمة الرئيسية للحياة بالنسبة لهما.

لم أكن مخطئًا عندما ظننتُ أنه جاء ليتكلم لا أكثر ، لو كان يُعاني مشكلةً نفسيةً ويريد أن يُعالَج فلن يأتِي إليَّ أنا الطبيب المبتدئ ، وسيذهب إلى أحد أساتذتي الكبار ، فمظهره لا يُوحي بأنه يعجزُ عن دفع تكاليف كشفهم ، ولكنه مثلنا جميعًا ، نحلم دومًا بأن نجدَ شخصًا لا يعرفنا لنتعرى أمامه ، نكشف كل خبايا نفوسنا وعوراتها ، نطلق الطائر الحبيس في صدورنا قبل أن يكسِّر ضلوعنا من كثرة ما يُحاول الهرب. فكنت أنا المناسب لأن الكبار لا وقت لديهم.

استرخى راقدًا على الأريكة ، نظر حوله يتأمل الغرفة ثم نظر إلى الركن المظلم الذي أجلس فيه وقال «ادخل دائرة الضوء يا دكتور.. فأنا لا أثق فيمن لا أراهم».

رنَّت كلمته «لا أثق فيمن لا أراهم» في أذني ، اعتقدت أني أملك حقوق الملكية الفكرية لهذه العبارة لأني دائمًا ما كنتُ أقولها لكل من أحادثهم على «فيسبوك» أو «ياهو» عندما تبدأ علاقتي بهم في التطور ، ابتسمت وأنا أتقدم قليلًا لأدخل دائرة

الضوء ، نظر إليَّ طويلًا وابتسم ، ظن أني أحاول أن أظهر بدور الخبير أو دور (فرويد) مستخدمًا الإضاءة الخافتة والغليون الذي لا يُفارق فمي والركن المظلم الذي كنت أجلس فيه.

فتحتُ مُشغِّل الموسيقى فانسابتْ في الغرفة موسيقى شرقيةٌ ناعمةٌ تبعث على الاسترخاء والراحة ، نظر إليَّ بدهشةٍ وسألني كيف عرفت أن هذه المقطوعة هي المفضلة لديه ، لم أكن أعلم طبعًا لكني شغلتها لأنها مفضلة لدي ولأنها تبعث على الاسترخاء ، ولكني لم أجبه واكتفيتُ بالصمت والابتسام.

سألته عن اسمه فابتسم قائلًا «محمد». كنت أعلمُ جيدًا أن هذا ليس اسمه لأنه لن يُدلي بأي بياناتٍ شخصيةٍ لرجلٍ يتعرى أمامه ، ولكني كنتُ أحتاج اسمًا ولو مستعارًا أناديه به ، سألتُه عن المشكلة التي يُعاني منها فقال لي إنه سيحكي لي كل شيء عن حياته وعليَّ أنا أن أعرف المشكلة ، أغمض عينيْه واسترخى أكثر ثم بدأ يحكي.

استغرق في حكايته حتى نسي وجودي ، حكى لي عن حياته كلها من ميلاده للحظة جلوسه أمامي ، والعجيب أن حياته كلها لم تستغرق سوى نصف

ساعة! ، ما أتعس هذه الحياة ، خالية من كل شيء ، حياة عادية لدرجةٍ مستفزة ، صمتَّ لا أعرف ماذا أقول ، رسم على وجهه ابتسامة مريرة وقال: «انتظر ، فلم أنتهِ بعد ، حدثتك عن كل ما فعلت في حياتي الجافة ، والآن سأحكي لك عما يعتمل في صدري».

عاد لحكايته ، ولكن هذه المرة لم يحكِ أحداثًا ، بل حكى عن مشاعره وأحاسيسه وأفكاره التي كانت تقضُّ مضجعه ولا يستطيع البوح بها لأحدٍ سواه ، حكى لي كيف أنه طوال حياته لا يشعر بأهميته ، لم يكن مؤثرًا في حياة أحد ولم يكن محط اهتمامٍ من أحدٍ ، بدءًا من والديْه ، ومرورًا بكل من صادقهم طوال حياته ، ونهايةً بزوجته وأبنائه ، حتى هؤلاء لم يكن يشعر منهم بأي اهتمام ، كان بالنسبة لهم كصفر المعادلة ، لا يؤثر بالسلب أو بالإيجاب ، كم حاول أن يكون مهمًّا ومؤثرًا ، تفانى في دراسته وعمله ، أصبح غنيًّا ، ولكن هذا لم يقضِ على شعوره الداخلي أنه مجرد بيدق على رقعة شطرنج ، كم حلم أن يترقى هذا البيدق ويصير وزيرًا ، حاول وتقدم ببطء ، انتقل من خانةٍ لأخرى حتى وصل للنهاية وترقَّى ، صرخ فرحًا وهو يقول «لقد صرتُ وزيرًا» ، ولكنه نظر في مرآته فرأى أنه ما زال مجرد بيدق.

كان كراقصة تعرٍّ ، تتعرى أمامك لتكتشفَ أن جسدها مليء بالقروح والتشوهات ، تعرٍّ يُثير الحزن والبكاء ولا يُثير الشهوة ، كان يخلع قطعةً قطعةً من جسده ليعري روحه ويكشفها أمامي.

ما أن انتهى من حكايته حتى اعتدل واقفًا ، نظر لي مبتسمًا وشكرني وانصرف ، هكذا بكل بساطة ، لم يسعَ حتى إلى أن يسمع رأيي في كل ما قاله.

ظل بصري معلقًا بالباب ، من هذا الرجل الذي جاء ليُعري نفسه ويُعريني وانصرف هكذا ببساطة ؟ كقاتلٍ محترف ، يقتل ضحيته ثم ينظر لها مبتسمًا وينصرف بهدوء.

تمارا

«هل انتهيت من كتابة المقال ؟»

ظهرت هذه الرسالةُ على برنامج محادثات فيسبوك.. كانت من (مريم).

أجابها بأنه لم يفرغ من مقاله بعد ، وأنه سيُرسله لها لتقرأه فور انتهائه منه. عاد لكتابة المقال واستغرق فيه حتى لم ينتبه لأي شيء حوله ، بعدما فرغ منه أرسله لمريمكعادته ليعرفَ رأيها قبل أن يرسله للجريدة.

«كالعادة مقال رائع يا حبيبي.. وأروع ما فيه صدقه.. أنا فخورةٌ بك»

حبيبي! .. فخورةٌ بك! ..

هذه الكلماتُ لها تأثير السحر عليه ، تنقله لعالمٍ آخر مليء بالجمال والحب.. عالم (مريم).

متحديًا سخرية والدته وأصدقائه بدأ نشاطه على فيسبوك ومدونته ، لم يلتفت لتأنيبهم الدائم له لأنه يضيع وقته في عمل ما لا يفيد ، فقد أضاع الكثير من عمره ومن هواياته لانه كان يسمع لهم من قبل. بعد مجهودٍ شاقٍّ ذاع أمره قليلًا وأصبح يكتب مقالًا أسبوعيًّا في جريدة جيدة التوزيع ، ثم بدأ يشتهر أكثر كمدافعٍ عن ذوي الاحتياجات الخاصة ويعقد الندوات ويحل ضيفًا على البرامج التلفزيونية والإذاعية.

البرامج الإذاعية!.. برنامج تمارا!..

أصبح يعشقُ هذا البرنامج وهذا الاسم أيضًا ، ليس فقط لأنه أشهر برنامج إذاعي وأنه حقق لفكرته رواجًا هائلًا.. بل لأنه أيضًا كان بداية معرفته بها.

حلَّ ضيفًا على هذا البرنامج منذ عدة أشهر ، تكلم كثيرًا وشرح قضيته ووجهة نظره ، تلقى الاتصالات الهاتفية المشجعة والمحبِطة وتعامل معها جيدًا حتى أبهر مقدم البرنامج الذي اشتهر بأنه (عصَّار الضيوف) لفرط ما كان يقذفهم بأسئلةٍ مفحمة ، آمن به وبقضيته عددٌ لا بأس به منهم مقدم البرنامجِ نفسه.

في اليوم التالي جاءته عدة رسائل على بريده الإلكتروني الذي أعلن عنه في البرنامج ، كانت أغلبها محفزةً على المضي قدمًا في طريقه ، في وسط هذه الرسائل كانت رسالتها :

{سمعتُ عنك قبل أن أسمعك في برنامج تمارا ، ولكني كنتُ قد رأيتُ مثلك الكثيرين وإن كنت تختلف عنهم في أسلوبك وحماسك الذي لم أكن متأكدة من جديته ، فأنت تعلم أن عالم الإنترنت مليء بالكذب والادعاء.

ولكني عندما سمعتُ صوتك أيقنت أنك مدافعٌ حقيقي عن ذوي الاحتياجات الخاصة ، وأنك لا تستغلهم للبحث عن شهرة أو مجد. لا تستغرب فنبرات الصوت تنقل لنا أكثر مما نتخيل.

لا أريد أن أطيل عليك ، ولكني أحببت أن أنصفك علنًا كما ظلمتك سرًّا بيني وبين نفسي ، ولا شيء أَحبُّ إلى قلبي من أن أشاركك مهمتك المقدسة خاصةً أنني مهتمة بهم مثلك.

أرجو أن تطّلع على مدونتي «نور القلوب» فستجد فيها ما قد يُثير اهتمامك وينفعك}

اطلع على مدونتها ووجدها مهتمةً مثله بذوي الاحتياجات الخاصة وتحديدًا المكفوفين ، تكتبُ مقالاتٍ عنهم وعن حيواتهم وتقومُ بتحقيقاتٍ وحواراتٍ صحفيةٍ مع بعضهم يشرحون فيها كيف تغلبوا على فقدان البصر ، وخصَّصت جزءًا من مدونتها لعرض التطبيقات والمنتجات التي تيسَّر لهم حياتهم كبرامج القراءة على الكمبيوتر وما شابهها.

شدته الكلمات التي كتبتها لتعرِّف مدونتها وتوضح من خلالها وجهة نظرها وتوجهها.

كتبت:{إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.. مرحبًا بكم في عالم بلا نفاق.. عالم اللون الواحد والوجه الواحد.. تقولون إنه لون أسود ، ولكن ما معنى أسود ؟ هل أستطيع أنا أو أحدكم أن يشرح لنا ماهو اللون الأسود أو غيره من الألوان ؟

ستقولون إنه عكس الأبيض أو هو لون الظلام.. ولكن هذه الإجابة تتطلب من السائل أن يعرف اللون الأبيض أو يعرف الظلام ، وكيف يعرف الظلام وهو لا يعرف الضوء — الضوء وليس النور- لأن النور كيان روحي يُحسُّ ولا يُرى ، النور للقلوب وليس للأبصار ، والأعمى هو من لا يرى بقلبه وبصيرته ، لا بعينيْه

هذه المدونة لأصحاب البصائروالنورالحقيقي ، وليست لأصحاب الأبصار والضوء العادي فقط} أُعجِب بإحساسها وكلامها العميق الذي يمسُّ القلب ويجعلك تستصغر نفسك إن كنت من «أصحاب الضوء العادي فقط» ، قرأ كثيرًا في مدونتها وشعر أنها قريبةٌ فعلًا من المكفوفين وحياتهم بدرجةٍ تجعلها تصفهم بدقةٍ شديدةٍ ، تشعر بهم بقلبها البكر كنبعٍ ماءٍ رائقٍ لم يتلوث بالصراعاتِ والكراهية ، تعرض أمثلةً كثيرةً للمبدعين فيهم دون أن ينالوا الشهرة الكافية التي نالها (طه حسين) أو (عمار الشريعي).

تشعر بهم أو... ربما تكون هي أيضًا منهم.. ربما تكون كفيفةً ، ولكنهذا يرفع قدرها أكثر.

ظل هذا السؤالُ يُراوده عن نفسه حتى رضخ له وقال هيت لك. وعندما سألها ، انزعجت ورفضت الإجابة عن هذا السؤال الذي— في رأيها - ما كان ليسأله لو كان مؤمنًا حقًّا بأن المكفوفين أناسٌ عاديون وليسوا ذوي احتياجات خاصة ، واعتبرته كمن يسأل شخصًا عن لونٍ أو ديانةٍ أو توجهٍ سياسي ليحدد على أساسه علاقته به.

****

لم يهدأ قلبها منذ أن طرح عليها هذا السؤال. انتفض ثم انقبض واستمر منقبضًا. هي تعلمُ جيدًا أنها غالت كثيرًا في رد فعلها وردودِها الجافة عليه ، ولكنها موقنةٌ أنه لو كان مؤمنًا حقًّا بما يفعل ما سأل مثل هذا السؤال.

أحسَّت من خلال كلماته بفزعه لأنها أساءت فهمه ، ظلت الاعتذاراتُ والتبريراتُ تتوالى على شاشة اللابتوب وهي مستمرةٌ في ردودها الجافة وتقريعه على هذا السؤال حتى أحسَّت أنها لو استمرت فسينقلب عليها فهدَّأت من حدة هجومها وبعد ترددٍ طويلٍأخبرته بأنها قبلت اعتذاره وأجابت سؤاله بأنها ليست كفيفة.

انسحبت بعدها واختفت. لتعاقبه ولتشعر بلذة الاهتمام واللهفة إن كان حقًّا يهتم بها ، ولتعيدَ ترتيبَ أفكارها وتقييمها لكل ما يحدث. وعندما عادت وجدت طوفان من الرسائل على بريدها الإلكتروني وعلى فيسبوك ، رسائل مضطربة بعضها يتقاطر منه الجزع وبعضها الغضب لاختفائها ،تلقت الطوفان بسدٍّ من السعادة الغامرة ، وردَّت عليه معتذرةً بأنها كانت مشغولةً في الأيام الماضية ولهذا لم ترَ الرسائل ، ووعدته بألا تختفي مرة أخرى ، وفي قرارة نفسها كانت

تعرفُ أنها لن تكرره لأنه أتى ثماره وإن تكرر سينقلب السحرُ على الساحر ، وهي لا تريد أن تفقد تلك اللذة.

انتقلت بعدها محادثاتهما من فيسبوك للهاتف ، وفي خلال محادثاتهما لم ينتبها لإله الحب الذي استيقظ من خموله ونفض الغبار عن قلبيهما ووجد كل منهما نفسه فجأةً يسكن قلب الآخر ، واكتشفا أنهما عاشقان.

عندما أخبرها بحبه ، صمتت طويلًا ثم أغلقت الهاتف في وجهه ، ظن أن هذا رفضٌ ولكن قبل أن يُصدَم ويحزن أعادت الاتصال به وأخبرته أنها أغلقت الهاتف من ارتباكها فقط ، وحينها عرف أنها هي أيضًا تحبه.

****

اتحدت الحياتان بعد هذا اليوم ، أصبحتا حياةً واحدةً ، حياتها هي ، تغلغل أثيرها في كل تفاصيل حياته ، ولونتها بألوانها النقية الزاهية ، حتى قضيته أصبح متحمسًا لها أكثر لأنها كانت سببًا رئيسًا في عَلاقته بها ، احتلته (مريم) واستحوذت عليه دون أن يقابلها ، فقد كانت ترفضُ بشدة أن يتقابلا وتتعلل بأنها لا تعيش في نفس مدينته وتشفق عليه من مشقة

السفر ، على الرغم من أن المسافة بين مدينتيهما لا تتعدى الثلاث ساعات ، واعتقد هو أن هذا ناتجٌ عن خجلها وارتباكها اللذيْن لمسهما أكثر من مرة في عدة مواقف حدثت بينهما وهو ما جعله مؤقتًا يقبل هذا الوضع الذي كان يظنه فيما مضى شاذًّا.

استمرَّت محاولاتُ الكرِّ والفرِّ منه حتى هدم حصن رفضها واستطاع أن يقنعها بمقابلته ، فهي زوجته المستقبلية ولا يجوز أن تظل عَلاقتهما افتراضية.

لم ينم كلٌّ منهما ليلته ، كان هو يفكر في شعوره حين يلقاها ، كيف سيقابل من احتلت روحه وكيانه ، هل سيستطيع أن يتمالكَ نفسه عندما يلقاها ولا يقبّلها ؟ لا بدَّ له أن يفعل ذلك حتى لا تنفر منه وتظنه لاهيًا يريد أن يعبث فقط.

أما هي فكانت تفكر في نتيجة اللقاء الذي ترى أنه سيترتب عليه مصير علاقتهما ، كانت دومًا تخشى المقابلة لأنها لا تعرف ماذا سيحدث عندما يتقابلان وجهًا لوجه ، اعتادت دائمًا أن تتعاملَ مع الناس من خلف حاجز الفيسبوك ولم تكن لها عَلاقاتٌ حقيقيةٌ إلا نادرًا ، سألت الله أن يُهدئ ضربات قلبها الذي أوشك أن يكسر قفصها الصدري ويهرب ، وطلبت من

صديقتها أن تبيت معها لتساعدَها في اختيار الملابس التي سترتديها للقائه ، وفي الصباح طلبت منها أن تذهبَ معها إلى النادي الذي قررت أن تقابله فيه.

****

شعر بأنه أُلقي في غيابات جبٍّ عميقٍ حين قابلها ، سوادٌ حالكٌ ثقيل أحاط به ، سوادٌ لا يستطيع أن يرى خلاله يده ، ألقته هي في غيابات هذا الجب عندما اكتشف أنها كفيفة.

خدعته في الربع ساعة الأولى ولم يعرف حتى أخرج الهدية ومد يده لها بها ، وجدها مدَّت يدها دون أن ترفعَ عينيْها عنه وطلبت منه أن يُعطيها إياها ، أكلت المفاجأةُ لسانه ولم يستطعْ أن ينبِس بحرف.

فهمتْ من صمته أنه عرف أنها كفيفة ، فابتسمتْ منتظرةً أن يتكلم ، ولما طال صمته اتسعتْ ابتسامتها أكثر وأخبرته أنه لا يحتاج للكلام لأنها فهمت كل ما يعتمل في صدره ، انفجر فيها صائحًا بأنها مخادعةٌ لأنها لم تُخبره حتى عندما سألها ، ولا يجوز لمن يُحب أن يخفي شيئًا عن حبيبه مهما كان تافهًا أو صغيرًا ، فكيف الحال وقد أخفت عنه شيئًا كهذا.

ردَّت هي بأنها كان يجبُ أن تتوقعَ هذا منذ أن سألها هل هي كفيفةٌ أم لا ، ولكن قلبها اللعين هو من منع عقلها عن التفكير السليم ولهذا لم تفهم منذ البداية.

أنهى المناقشة بأن أخبرَها بأنه سينصرف لأنه يريد أن يجلس وحدَه قليلًا ويستجمع شتات نفسه وجهازه العصبي الذي تبعثر على الأرض ، ولكن قبل هذا يجب أن يوصلها حتى منزلها ، ردَّت هي بأن معها صديقتها وأنه ليس الشخص الذي تريد في يوم من الأيام أن تعتمد عليه في شيء ، وأنها لن تنتظرَ مكالمةً منه لأنه لن يتكلم ثانية ، وأشارت لصديقتها التي كانت تجلسُ على طاولةٍ مجاورةٍ وانصرفا.

****

ألقى الصمتُ عباءته الثقيلةَ على السيارة ، فقد كانت تتوقعُ حدوث هذا الموقف ولكنها كعادتنا كانت تكذِّب نفسها وتقول إنه غير كل الناس وإنه فارسٌ نبيلٌ متَّسق مع نفسه ومبادئه ، كانت غبيةً كالعادة.

نظرتْ لها صديقتها قائلة: «حدث ما كنت تتوقعين»!

ابتسمتْ ولمعانُ عينيْها يُنذر بهطول الدموع ، ولم ترد عليها.

****

جلس أمام شاشة الكمبيوتر ينظر للاشيء. عرف أخيرًا لم كانت ترفض أن تقابله ، ولم يكن خجلها وارتباكها هو السبب.. تردَّد داخله سؤالٌ مزعج: هل حقًّا غضب وقرَّر أن يقطع علاقته بها بسبب الخدعة ؟ أم لأنها كفيفة ؟ صرخ قائلًاإنه غضب من الخدعة وليس لأنها كفيفة ، وأنها لو كانت أخبرته من البداية لكان الوضع مختلفًا.

هرب من نفسه وأسئلتها وأخذ يقرأ كل ما هو مكتوب أمامه على فيسبوك حتى لو كان تافهًا ، ودون أن يدري فتح مدونة «نور القلوب» ووجد أن (مريم) قد كتبت مقالًا قصيرًا تقول فيه:

{ أن تكون آرتور رانبو..

كيف يكون حالك عندما تنظر لنفسك في المرآة بعدما ذاب قناعك – الذي كنت تظنه وجهًا حقيقيًّا - وتكتشف ربما للمرة الأولى ملامحك الحقيقية ؟ تمعَّن فيها قليلًا وأخبر نفسك هل ترضى عن هذا الوجه الحقيقي أم لا؟

كيف تكون عندما تفشل في أول اختبار حقيقي يحدد هل أنت صاحب مبدأ حقًّا أم لا؟

أعرف أنك كنت تظن نفسك صاحب مبدأ ولم تكن تدَّعي ، ولكنك فشلت في الاختبار وظهر وجهك الحقيقي.

أرجو منك عندها ان تتحلى بشجاعة (آرتور رانبو) وتتخلى عن المبدأ وتتركه لمن ينجح في اختباره}

ضفة وادي الشوك الأُخرى

للمرةِ العاشرةِ تأتيني! يا ولد لا يمكنني أن أعطيكَ ما تطلب ، روحك لن تحتمله وأنا أحبك.. نعم أنت ولدٌ صغيرٌ ولو كان عمرُك ألف عامٍ وليس سبعين فقط. اذهب فطلبك ليس عندي.

أوه. ها قد أتيتَ مرةً أخرى! حسنًا سأعطيك ما تريدُ حتى ترحلَ عن سماي ، لن أراك مرةً أخرى وهذا يُحزنني ولكنك أنت من تريد هذا ، هاتِ قربانًا يليق بالأم الكبرى وتعال.

هل رأيت هذا الرجل الذي يلح عليّ كي يرجعَ بالزمن يا ولدي ، مسكين لا يعرف ما سيحدث له ، سيعود بعد قليل بثورٍ عظيم اقتطع ثمنه من قوت بيته ، سأذبح القربان وأصنع له إكسيرًا من دمه ، ثم

سآمره بعبور وادي الشوك كي يرجع بالعمر كما يريد ، وبعدها...

ها قد أتيتَ بالثور العظيم ، ادخل إلى الغرفة ريثما أحضِّر لك الإكسير ، ولا يسدل الليل ستائره عليك إلا وأنت على الضفة الأخرى من وادي الشوك.

افعل ما آمرك به دون جدالٍ يا ولد.. وانظر جيدًا لتلميذي هذا ، فسوف تعود له بعد حين.

حدّثني معلمي عنك وقال لي إنك ستأتي مرةً أخرى بعد خمسين عامًا ، ألا تذكرني ، أنا التلميذ الذي قال لك المعلم ستعود له بعد حين. ماذا تريد ؟

ألم تتعلم أيها المجنون ؟ تريد العودة مرةً أخرى !!

كان معلمي يُجادلك ولكني لن أفعل مثله ، فأنا بالكاد أعرفك ، هات القربان وتعال.

تذكر هذا الرجل يا ولدي ، ألح على معلمي من خمسين عامًا كي يعودَ شابًّا مرةً أخرى كي يُصحح أخطاء يظن أنها أوصلته لهذه الحال ، لم يتعلم الدرس وسيأتي بثوريْن عظيميْن استدان ثمنهما وسيطلب أن يعودَ شابًّا بخبرة شيخ. سأعطيه الإكسير وآمره بعبور وادي الأم الكبرى ، تذكره فسوف يعود لك مرة أخرى.

عدت مرةً أخرى إذن! كنتُ حاضرًا عندما طلبتَ من معلمي أن يُعيدك بالزمن مرةً أخرى ، نعم أعرف أنك لا تريد العودة مرةً ثالثةً فروحك أصابها السواد. لا تقاطعني ، أعرف ما سوف تفعله ، لي فقط رجاءٌ عندك: أن تقتلَ نفسك خارج داري فأنا شيخٌكما ترى ولا طاقة لي لتنظيفه.

جثةٌ مجهولةٌ

تسمَّر طارق من الرعب حين وجد جسدًا ملقى على الرصيفِ في شارع جانبي، استجمع شجاعته واقترب منه بخطواتٍ حذرةٍ، تتردد في ذهنه كل حيلُ قُطاع الطرق التي تُستخدم فيها الأجساد الملقاة كالجثث، ولكنه كان من الشجاعة أو الحماقة ولم يبال بكل صافرات الإنذار التي أطلقها عقله.. ركل الجسد المسجَّى بطرفِ حذائه عدة مرات، ولما لم يجد استجابةً مال عليه وتحسَّس المعصم والعنق كما يُشاهد في التلفزيون ليبحثَ عن نبضٍ غير موجود.. عدل الجثة على ظهرها وسلط كشاف هاتفه على وجهه ليتعرف ملامحه.

للحظاتٍ تخيَّل أنه ينظرُ في المرآة قبل أن يفطن أن هذه الجثة تحملُ ملامحَه ، كأنها جثةُ توْءم متطابقٍ معه ، سقط على الأرض وزحف مبتعدًا عن الجثة وهو يرتجف ، زحف حتى التصق ظهره بالجدار وطقطقت فقراتُ ظهره معلنةً أنه لا مجال للتراجع أكثر من ذلك ، استعاذ بالله من الشيطان والجان وكل ما كانوا يُخيفونه به صغيرًا ، وقرأ آياتٍ متفرقةً من القرآن الكريم وهو يحتضنُ نفسه.

ظل صامتًا لا يتحرك حتى شعر ببللٍ في مؤخرته ، وانتبه أنه يجلس في بركة ماءٍ قذر ، نهض واقفًا على ساقيْن من عجينٍ واتجه للجثةِ وهو يسأل نفسه «من هذا الذي يماثلني ؟ هل قُتِل أم مات ميتة طبيعية ؟»

فتَّش جيوب الجثة بحثًا عن أوراق هويته أو هاتفه ولكنها كانت خاوية. لابدَّ أن لصًّا قتله وسرق كل ما معه.

تردد كثيرًا هل يُبلغ الشرطة أم يتجاهل الأمر وينصرف حتى لا يُقحم نفسه في المشاكل ويقضي إجازته بين أقسام الشرطة والنيابة خاصةً مع الشبه المريب بينه وبين القتيل؟

فكَّر كثيرًا وتصارعت الأفكار والخيالات في رأسه حتى حسم أمره وقرَّر أن يبلغ الشرطة ، ولكن ليس من هاتفه.

ركض لمسافةٍ طويلة حتى وجد كُشكًا ، التقط زجاجة مياه من الثلاجةً أفرغها في جوفه ثم التقط هاتفًا وأبلغ الشرطة عن الجثة والعنوان.

انصرف وهو يشعر براحة ضميرٍ جزئية لأنه لم يتجاهل الأمر ودعا الله أن تُمحى من ذاكرتهً تفاصيل الساعة الماضية.

ظل يتقلب ليلتها على جمر الفراش حتى الصباح ، عقله لا يكفُّ عن التساؤل: «تُرى ماذا حدث ؟ هل ذهبت الشرطة أم ظنوا أنني أعبث ولم يُعيروا بلاغي اهتمامًا ؟ هل عثروا على أهل القتيل وأخبروهم ؟ أم لم يتم التعرف عليه ؟ كيف سيكون حال أهله عندما يعلمونأن ابنهم مات ؟ وكيف سيكون حالهم إذا لم يعرفوا عنه أي خبر ؟ تُرى أيهما أسوأ ؟»

خبط رأسه في الجدار عدة مراتٍ كي يُجبر عقله على التوقف ، ولكنه كان صُلبًا عنيدًا مثله ، فتح درج مكتبه وأخرج شريط الأقراص المنومة المترب ، تأمله مترددًا وهو يتذكر كيف عانى للإقلاع عنه ، ولكنه مرهق جدًّا

ويحتاج للنوم بشدة ، ابتلع القرص وانتظر حتى يبدأ مفعوله.

****

وجد طارق نفسه قد عاد طفلًا ، يجلس مع أبيه رحمه الله.. نظر له أبوه قائلًا: «إنك تشبهه كثيرًا ، كنتُ موفقًا حين سمَّيتك باسمه (طارق) ، ولكني أرجو الله ألا يجعل نهايتك مثله ، وألا يجعلنا نُعاني أنا ووالدتك كما عانى جدَّاك بسببه ، لا أدري هل أترحم عليه أم لا؟ فأنا لا أعلم إن كان حيًّا أم ميتًا ، ولكن الرحمة تُطلب للحي والميت.. رحمه الله»!

لمعت عينا الأب بالدموع وانتقلت عدوى الدموع لطارق ، استمر الأب في حديثه: «لم يقترف ذنبًا ، كان مسالمًا خجولًا.. حذرناه كثيرًا من عواقب إطلاق لحيته في زمنٍ توسَّعت فيه دائرة الحرب على الإرهاب حتى لتشمل كل من هو ملتزم دينيًّا ، كنا نعيش في مدينة بالصعيد وكان هو طالبًا بكلية الطب ، ولما لم يكن بالمدينة كلية طبٍّ سافر إلى مدينة أسيوط ليدرس بجامعتها..

في السنة الثالثة له في الكلية انقطعت أخبارُه ولم يعد لمدينتنا في موعد إجازته ، سافرت أنا وجدك إلى

أسيوط ، وهناك علمنا من بواب البناية التي يسكنُ فيها أن قوات أمن الدولة اقتحمت شقته هو وأصدقاءه وألقت القبض عليهم جميعًا ، انهار جدك باكيًا على الأرض حين سمع الخبر ووقفتُ أنا مذهولًا.. طارق ؟ لِم ؟ أنا متأكد أن أخي لاعلاقة له بالجماعات الإرهابية ، فهو مسلمٌ تقي.. يرعى حدود الله ويعرف حرمة الدم جيدًا ، كان يتألم دومًا كلما سمع عن عمليةٍ إرهابيةٍ أُزهِقت فيها أرواحُ الأبرياء ويردد دومًا الآية الكريمة: (مَن قتل نفسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا)

بليت أحذيتنا وأقدامنا ونحن نبحث عنه ما بين الأقسام ومديرية الأمن ومقر أمن الدولة ، وكلهم يدَّعون أنهم لا يعرفون شيئًا عنه ولم يتم القبض عليه ، عدنا للبناية وسألنا جيرانه وكلهم أجمعوا أنه قُبض عليه.. بحثنا مرةً أخرى في المستشفيات والأقسام والمديرية ولم نجد له أثرًا..

ظللنا نبحث حتى أصاب اليأسُ قلوبنا وأصاب المرض جدَّيك ، ولم يمر عامٌ على اختفائه حتى كانا قد فارقا الحياة متحسريْن على ابنهما المفقود ، كانت جدتك تهذي في آخر أيامها وتقول: «حتى لو كان إرهابيًّا ونال جزاءه ، ألا يجوز لي أن أعرف ، ألا يجوز

لأم أن تعرف ما حدث لابنها ؟ حتى لو قتلوه ؟ أريد أن أعرف أين قبره لأزوره وأقرأ له الفاتحة.. أريد أن أعرف أين ابني»..

بعد موتهما كرهت الحياة في بلدتنا وبيتنا الذي يُذكرني كل ركن فيه بالمأساة التي عشناها ، تركتُ البلدة وجئتُ إلى الإسكندرية وتركتُ دفتي للحياة لتنسيني ما كان».

****

سار طارق مع والده يتضاحكان ، كان الشارع خاليًا من البشر وكأنه في مدينةٍ هجرها أهلها بسبب الحرب ، فجأةً توقف الأب وأشار لنقطةٍ على الرصيف ، التفت طارق فوجد جثةً ملقاةً على الرصيف ، جرى نحوها ، نظر للجثةِ فوجدها جثته هو ، تراجع في رعبٍ والتفت لوالده فلم يجده ، عاد يلتفتُ للجثة فلم يجدها ووجد مكانها حفرةً تفغر فاها ، اقترب من حافة الحفرة وقبل أن ينظر داخلها امتدت أذرعٌ سحبته داخلها ، لم يجد الوقت الكافي ليصرخ..

استيقظ ليجدَ نفسه في غرفةٍ باردةٍ.. عارٍ تمامًا ومغطى بملاءة بيضاء ، كان حوله طبيبان يقول أحدهما للآخر: «للأسف لم يتم التعرف على الجثة ،

لم نجد معه ما يُثبت هويته» ، رد الآخر: «رحمه الله.. هذا رزقٌ أرسله الله لطلبة الكلية كي يُمارسوا التشريح».

«عمن تتكلمون أيها الأوغاد؟ رزق؟ من هو الذي لم يتم التعرف عليه ؟» قالها طارق ولكن صوته لم يخرج ، حاول أن ينهض ولكنه وجد جسده متخشبًا تمامًا ، حاول أن يتحرك اي حركة يثير بها انتباههم بلا فائدة.. في النهاية وجد الطبيب يُغطي وجهه بالملاءة وهو يتمتم بالشهادتين.

****

من مذكرات طارق:

مرَّ الآن أسبوعٌ ولا تُفارقني تلك الكوابيسُ اللعينة.. فتارةً أرى نفسي جثةً في المشرحة وتارة أخرى أرى والدي ، رحمه الله ، وهو يقصُّ عليَّ قصة عمي الذي أصبحت أمقته وأمقت قصته ، ولو استمرَّ الحال هكذا سأمقتُ والدي أيضًا.

عُدت مرةً أخرى لإدمان الأقراص المنومة ، أصبحت لا أنام إلا بها ، وكلما نمت حلمت بتلك الكوابيس اللعينة ، قررت يومًا ألا أنام ، ولم يكن هذا صعبًا إذ كان يكفي ألا أتعاطى القرص المنوم.. ولكن الكوابيس

لم تتركني بل تحولت إلى خيالاتٍ تزورني في يقظتي أيضًا ، أصبحت حياتي جحيمًا ، لعنة الله على تلك الإجازة.. متى أسافر وأعود لعملي حتى أجدَ ما يلهيني عن هذه الخيالات المريضة.

****

«لقد استقلت من عملي ، لن أعود للإمارات مرة أخرى»

ألقى طارق قنبلته على خطيبته وصمت منتظرًا تأثيرها عليها ، نظرت له غير مصدقة وقد تدلى فكها في بلاهة ، تخيلت أنها لم تسمعه جيدًا فطلبت منه أن يُعيد ما قاله مرة أخرى.

أعاد عليها ما قاله وتأكدت أن أذنيها لم تكذبا ، تحوَّلت من حالة البلاهة والذهول لحالة الغضب الشديد..

«لماذا؟ ما الذي حدث ؟»

«لا شيء»

«لقد كنت سعيدًا عند عودتك من الإمارات وقلت في عملك الجديد وإدارته ما لم يقله قيس في ليلى.. ما الذي غيرك فجأة ؟»

«لا شيء.. لقد تقدمت باستقالتي بالفعل وانتهى الأمر»

«ماذا تعني بلا شيء ؟ لا بدَّ أن هناك سببًا ، ولا بدَّ أن يكون السبب وجيهًا ، ثم ما معنى أنك قد تقدمت بها وانتهى الأمر ؟ منذ متى تأخذ قرارات تخص حياتنا ومستقبلنا وحدك ؟»

«هذا قرار يخص حياتي وحدي»

«حياتك وحدك! وماذا عني أنا ؟ ألم يكن هذا العمل هو الطريق الوحيد الذي سيجعلك قادرًا على أن تتزوجني ؟ ألم تفكر فيَّ»

«سأبحث عن عمل هنا في الإسكندرية ، وسيرزقنا الله ونتزوج قريبًا»

صمتت طويلًا وإن لم تصمتْ عيناها اللتان انهمر منهما شلالا دموع ، أحسَّت بالهواء صُلبًا ثقيلًا حولهما يكاد يخنقها ، نهضت قائلة: «أنا لا أفهمك ، ولكن ما دمت قد أقدمت على هذه الخطوة وحدك ، فلتكمل

حياتك وحدك» وأعقبت كلمتها بخلع خاتم الخطوبة وإلقائه على الطاولة.. وانصرفت.

نظر طارق للخاتم الذي يترنح على الطاولة كأنه ثمل ، لا يُصدق أنها أقدمت على هذا الفعل ، فكر أن يلحقها ويُحاول أن يشرحَ لها موقفه ، ولكن ماذا عساه يقول لها؟ لا يستطيع أن يبوحَ بخوفه لأي شخصٍ مهما كان قريبًا منه ، فجميعهم أغبياء لن يفهموه وسيعتبرونه مجنونًا ، أو على أقل تقدير مريضًا نفسيًّا.. تحسَّس قصاصة الورق التي يحتفظ بها في جيبه دائمًا ، ولما اطمأن إلى وجودها ، تنهد ونظر للخاتم نظرة أخيرة ، ثم أشار لصديقه أشرف الذي كان ينتظره على طاولة بعيدة.. وانصرفا.

****

جلس أشرف يُشاهد التلفزيون مع زوجته ، سألته عن أخبار صديقه المقرب طارق الذي تكرهه كما تفعل كل زوجة مصرية أصيلة.

تنهد قائلًا: «لا أعلم.. منذ عودته من الإمارات وهو غريب الطباع.. لم يعد طارق المنطلق الذي عرفته ، أصبح كئيبًا ، يتصل بي دائمًا لأذهب معه إلى أي مكان يريد الذهاب إليه ، حتى لو لم يكن هناك مبرر

لذهابي ، كذلك اليوم عندما اتصل بي وطلب مني أن أذهب معه للقاء خطيبته ، لم أفهم لم يُريدني أن آتي معه ، وقلت لنفسي ربما كان هناك سوء تفاهم بينهما ويُريدني أن أحله ، ولكنه زاد حيرتي عندما أخبرني أنه يريدني أن أجلس على طاولة بعيدة وألا تراني خطيبته ، يريدني أن أوصله لمكان لقائهما ثم أنتظره بعيدًا حتى يفرغا من حديثهما وبعدها نغادر وأعود به لمنزله! ، وعندما رفضت غضب جدًّا واتهمني بأنني صديق نذل لا أقف جواره وهو الذي وقف جواري كثيرًا ، ثم تحوَّل من حالة الغضب فجأة لحالة من الضعف والاستجداء لم أملك معها إلا أن أوافق على طلبه الغريب..

ومرة أخرى طلب مني أن أمر عليه في منزله ونذهب معًا لشراء خضراوات وفاكهة ثم نعود لبيته مرة أخرى ، على الرغم من أن السوقَ لا يبعد عنه أكثر من ربع ساعة سيرًا على الأقدام ، لو كنت أملك سيارة لكنتُ ظننتُ أنه يستغل سيارتي لقضاء مشاويره كما يفعل أي شخص مع صديقه الذي يملك سيارة ، ولكني حقًّا لا أفهم شيئًا ، أشعر أنه يُعاني مشكلةً نفسيةً ما ، ولكنه لا يتكلم ويغضب كثيرًا عندما أصارحه بشعوري..

لا أعلم سأحتمل هذا الأمر حتى متى».

مصمصت زوجته شفتيها قائلة: «هل رأيت أنني كنتُ على حق عندما كرهته منذ رأيته أول مرة ، قلبي حدثني بأنه مجنون».

****

رسالة إلى بريد القراء:

ترددت كثيرًا قبل أن أكتب لك هذه الرسالة ، ولكني كنت سأجن إن لم أبُح بما في صدري..

أعاني منذ فترةٍ مشكلةً غريبةً ، خوفًا شديدًا من أن أموت دون أن يعلم أهلي ، لا اخاف من الموت ذاته ولكني أخاف أن أموت مجهولًا في مكانٍ لا يعرفني فيه أحد ، أخاف من المعاناة التي ستعانيها والدتي إن انقطعت أخباري فجأة ، وأخاف حين أتخيل نفسي راقدًا على طاولة التشريح ، جسدي متروك لطلبة الطب يعبثون به كما شاؤوا.. كل هذا أصابني بحالةٍ نفسيةٍ تجعلني أخاف أن أخرج من المنزل.. كنتُ أعمل خارج مصر ولكني تركت عملي وعدت.

أصبحتُأمشي دائمًا في جيبي قصاصة ورق مكتوب فيها اسمي وعنواني ورقم هاتف أخي للاتصال به في حالة الطوارئ ، ولا أغادر البيت إلا برفقةِ أحد

أصدقائي ، حتى بدأوا يملون مني ومن تصرفاتي التي لا يفهمونها ولا أستطيع أن أشرح لهم مبررها حتى لا ينظروا لي كمجنون.

أملي كبير في أن تساعدني على حل هذه المشكلة.

(ط . أ . ع)

****

رد المحرر :

صديقي (ط . أ . ع)

«وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا ، وما تدري نفسٌ بأي أرض تموت»

مشكلتك غريبةٌ لم أسمع بمثلها من قبل ، فأنا أعرفُ أن هناك من يخافُ الموت عمومًا ، وهذا يكون في اعتقادي بسبب أنهم يتوقعون عذاب الآخرة ولا يتوقعون دخول الجنة ، لأنهم لا ينظرون لله تعالى بعين الحب ، ولكني أول مرة أسمع عمن لا يخشى الموت ذاته ولكنه يخشى الظروف التي سيموت فيها.

إن كنتَ تنتظر مني حلًّا يضمن لك ألا تموت مجهولًا فقد خاب ظنك فيَّ ، فما أنا إلا عبدٌ فقيرٌ لا يضمن أن يعيش حتى تصلك هذه الرسالة.

الحل الوحيد هو أن تنزع هذا الخوف من قلبك وتسلم أمرك لله تعالى ، وأن تتعلق به وتتنفس به ويكون هو عز وجل قِبلة حياتك ومبلغها ، تواصل معه بالصلاة ، وحاول أن تُصفي روحك لتسمو وتكون في حضرة الله عز وجل.

وصدِّقني عندما نموتُ ستكون لدينا أمورٌ أهم بكثير لنشغل عقلنا بها ، عندما نموتُ لن نبالي بأن تكونَ جثثنا معلومة أو مجهولة ، ولن يفرق معنا ما سيحدث لأجسادنا وأين سيكون مستقرها ، فهذه الأجساد مجرد أوعية يضعنا فيها الله تعالى لوقتٍ معلومٍ عنده وبعدها يأخذنا منها مرة أخرى ، وبعد أن نغادرها لن يهمنا كثيرًا ما سيحدث لهذه الأوعية.

عندما نموت يا أخي سنكون في اشتياقٍ لرؤية الخالق عز وجل ورفقة نبيه صلى الله عليه وسلم إن شاء الله.

أتمنى من الله أن يساعدك ويطمئن قلبك.

****

من مذكراتِ طارق:

«وما تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت»
يا لها من جُملةٍ موفقةٍ تبدأ بها ردك ، قرأتُ الرد عدة مراتٍ أحاول أن أستشف منه الحل أو طريق الوصول إليه ، ولكني لم أجدْ سوى كلامٍ مرسلٍ لا يُسمن ولا يُغني من جوع.

«ولكن الحل الوحيد هو أن تنزع الخوف من قلبك»

يا سلام.. هل تدري كم أنت عبقري سيدي المحرر ؟ وكأني لا أعلم أن الحل هو أن أنزع الخوف من قلبي.. ولكن سؤالي كان هو كيف أنزعه ؟!

سحقًا لكل الأغبياء!

****

أشرف:

كنا في الأوتوبيس متجهين لأحد أصدقائنا عندما صعدت عجوزٌ متهالكةٌ مهلهلة الثياب ، وأخذت تُوزع أوراقًا على الركاب وهي تبكي ، في البداية ظننا أنا وطارق أنها متسولة ، ولكن ما أن وصلت إلينا حتى أدركنا أننا أسأنا الظن بها ، فقد أعطتنا ورقةً بها صورة

شابٍ كتِب تحتها بخط عريض «مفقود» ، وتحتها استغاثة من والدته المسكينة تستجدي فيها أن نتصل بها في حال عرفنا شيئًا عن ابنها.

اتسعت عينا طارق بشدة وتحجَّرت نظراتُه على الورقة ، وعندما رفع عينيْه إلى العجوز اتسعت عيناه أكثر وتحوَّل تنفسه إلى لهاثٍ سريعٍ متقطعٍ وارتعش جسده بشدة.

«طارق.. هل أنت بخير ؟»

ناديته كثيرًا ولم يرد ، لكمته في كتفه فانتفض ونظر لي نظرةً خاويةً طويلةً كأنه لايعرفني ، ثم أفاق من شروده مقررًا العودة للمنزل ، حاولت إقناعه بالعدول عن هذه الفكرة ولكنه رفض بشدة وأصر أن أعود معه ، ولم أملك إلا أن أفعل خوفًا عليه.

****

من مذكرات طارق..

كيف لم يلحظ أشرف ما لاحظته ؟
كيف لم يلحظ أن الصورة المفقودة هي صورتي ؟
هل كان غبيًّا وعديم الملاحظة لدرجة أنه لم يلاحظ أي شبه بيني وبينه ؟

ما أن رأيت الصورة حتى تذكرت تلك الجثة المجهولة التي وجدتها ، فكرت هل أخبر العجوز بما رأيت أم أصمت ؟ وما أن رفعتُ رأسي لأخبرها حتى وجدتها أمي.

غامت الدنيا أمام عينيَّ وأنا أنظر لها ، صرختُ قائلًا: «لِمَ تبحثين عني يا أمي ؟ أنا معك ، لم تفقديني» ، ولكني لم أسمع صوتًا لصرختي.

أفقتُ على لكمة أشرف ، نظرتُ له وأنا لا أعرف من هو ، وبعد لحظات استعدت ذاكرتي.

صممت أن أعودَ للمنزل ، كاد أشرف يُجن بسببي ولكنه رضخ لتصميمي وعاد معي.

ما أن رأتني والدتي حتى فزعت من شحوب وجهي وسألتني ماذا حدث ؟ لم أجبها ودفنتُ نفسي في حضنها ، وقال لها أشرف إنني مُرهق قليلًا وأحتاجُ للراحة.

بعد برهةٍ قبَّلت يديْها ورأسَها وتركتهم داخلًا غرفتي لأستريح.

****

بعد عدة أيام اتصل طارق بأشرف واعتذر عما بدر منه وعن أنه أرهقه في الفترة الأخيرة ، وطلب منه أن يسهرا معًا في مقهى قريبٍ من منزله ، لم يفهم أشرف لِمَ يُصر طارق على هذا المقهى الذي كان يكرهه في البداية ، ولكنه لم يسأله عن السبب.

ذهب أشرف للمقهى ووجد طارق ينتظره وعلى وجهه ابتسامة طالما افتقدها في الآونة الأخيرة ، عانقه طارق وقبَّل رأسه طالبًا منه أن يسامحه عن كل ما سبَّبه له من إرهاق ، واحمرَّ وجه أشرف من الخجل ، لأنه لم يعتد هذه المواقف.

جلسا ولعبا طاولة ، وفي أثناء اللعب تسامرا وضحكا كثيرًا ، وكان أشرف مندهشًا من تغيُّر حال صديقه ، ولكنه خاف أن يسأله أو يُبدي اندهاشه حتى لا يغضب ، واكتفى بأن حمد الله في سره.

بعد فترةٍ تحسَّس طارق جيوبه ليطمئن أن قصاصة الطوارئ موجودة ، ولكنه لم يجدها. غابت الابتسامة عن وجهه ونهض فجأة يُفرغ جيوبه ويُفتش محتوياتها بحثًا عنها ، ولما تأكد أنه فقدها ، ارتاع وركض مذعورًا إلى منزله ، وقف أشرف مذهولًا مما يحدث ثم ركض وراءه وهو يناديه.

ما أن بلغ طارق منزله حتى هدأت أعصابه ودخل غرفته غير مبالٍ بنظرات التساؤل التي تسيل من عينيْ والدته وهي تراه يلهث ويتصبب عرقًا وما لبثت أن تحولت لاندهاش عندما دخل في إثره أشرف وهو يكاد يلفظ روحه من شدة لهاثه ، دخل أشرف حجرة طارق وبلغت روحه الحلقوم لما وجده يجلس على فراشه هادئًا كأن شيئًا لم يحدث ، انفجر فيه واتهمه بأنه مجنونٌ ومريضٌ نفسي ولعن اليوم الذي عرفه فيه ، وتركه وانصرف.

ظل طارق ينظر لباب الغرفة التي غادر منه أشرف ساهمًا ورأى والدته وهي تحاول أن تلحقَ به وتهدئه وتفهم منه ما حدث ، ولكن أشرف لم يتوقف ، عادت لطارق غاضبة وقبل أن تنفجر فيه وجدته يبكي..

تحوَّل غضبها لذُعر ، جلست بجواره وضمَّته لصدرها ، ووضعت يدها على رأسه وقرأت ما تيسر من القرآن.

****

من مذكرات طارق..

في اليوم التالي تأهبتُ للخروج بعد أن كتبتُ قصاصة طوارئ أخرى بدل التي فقدتها ، وما أن غادرت باب البناية حتى استوقفني خاطرٌ مزعج ، ماذا لو فقدتُ القصاصة مرةً أخرى ومِت في مكانٍ غريبٍ لا يعرفني فيه أحد؟ كيف يمكن أن يصلوا لأهلي ويخبروهم؟ وكيف أضمن ألا تضيع مني القصاصة مرة أخرى؟

سيطر هذا الاحتمالُ على عقلي بعد أن رأيته منطقيًّا وواردًا بقوة ، وعُدت لمنزلي مرةً أخرى عازمًا على ألا أغادره أبدًا.

****

من مذكرات طارق..

مرَّ أسبوعان الآن منذ غادرت المنزل آخر مرة ، يسألني أخي وأمي عن سرِّ عدم خروجي من البيت بلسانيْهما أحيانًا أو بعينيْهما في كل لحظة ، في البداية أخبرت والدتي أني أريد أن أستمتع بالجلوس معها ، وأنني بحاجةٍ لأن أريح أعصابي ، ولكنها ردت عليَّ بأنني لا أجلس معها وأجلس دائمًا في غرفتي وحيدًا ، وطلبت مني أن أخرج مع أخي ، أو أتصل بأشرف

وأعتذر منه عما سببته له وأخرج معه ، ولكني رفضت بشدة وأخبرتها أنني أريد أن أبقى في المنزل ولا أريد أن أخرج منه.

بالأمس سمعتُها تتحدث مع أخي وهما يظنان أني نائم ، قالت والدتي إنها تشعر بأن عِفريتًا يُسيطر عليَّ ، وهو سبب تصرفاتي الغريبة ، وأنها تُريد أن تُحضر شيخًا ليرقيني ويُخرج هذا العفريت!

أما أخي فقال إنني مريضٌ نفسي ، وإنه يجب أن نستعين بطبيب نفسي ليعالجني ، وإن له صديقًا يعمل طبيبًا نفسيًّا ، سيستشيره في الأمر ويحضره للمنزل ليقابلني دون أن يُخبرني بشخصيته علَّه يستطيع أن يُشخص مرضي!

وفي نهاية مناقشتهما اختلفا على تشخيص حالتي ، فأمي تُصر أن عِفريتًا يسيطرُ عليَّ ، وأخي يُخبرها أن هذه خرافات لا يقبلها العقل في القرن الحادي والعشرين ، وأنني فقط مريضٌ نفسي ويجب معالجته.

سأريحهما من هذه المناقشة والخلاف ، فقد وجدتُ أخيرًا الحل الذي كنتُ أبحث عنه ، والذي سيضمنُ لي أن أموت وسط أهلي ، وألا أكون جثةً مجهولةً أو رزقًا لطلبة الطب.

طاقةُ نور

«ياما نفسي أعصر الطماطم»

أسمعه كل يوم يُقهقه وهو يقول تلك الجملة المأفونة ، فتنظر له أمي شذرًا من ركنها المظلم خلفي ، وترد عليه قائلةً: «اتلهي ، لمونك نشف خلاص وما بقاش منك رجا» ، فيقهقه هذا البائعُ الأعرج الشيخ ، ويرفع جلبابه ويُلوح به ليُري أمي أنه ما زال بخير ، وألعنُ أنا حسن حظه وسوء حظي ، الذي دفعه لحط رحال فرشته أمامنا.

كنتُ أتمنى أن أعيشَ في السوق ، وأبيع وأشتري مثل أمي ؛ ولكنها في البداية كانت تُريدني مُدرِّسة ، مثل الأستاذة منار التي دائمًا ما تشتري منها الخضروات. ولكن ، بعد أن أتممتُ المرحلة الابتدائية

بشِقِّ الأنفُس ، أخبرتني أنني سأذهبُ معها للسوق لأساعدها في فترة الإجازة.

لم أنم ليلتها فرحًا ، وأنا أتخيلُ نفسي في السوق وسط هذه الخضر والفاكهة ذات الألوان الزاهية المحببة للنفس ، أحمر وأخضر وأصفر وبنفسجي هي الألوان السائدة ، إلى جانب بعض الألوان الأخرى.. حركة الناس ، ومزاح الباعةِ وعَلاقاتهم الوطيدة.. ماذا تكون الجنة غير هذا؟

جلستُ جوار أمي في فرشتها ؛ قبل أن تستطيعَ تأجير الدكان الذي نحن فيه الآن ، أتعلم منها أصول عرض البضاعة والفِصال والمجادلة.. ضربتني عندما أخبرتُها أنها تغشُّ الميزان ، وفي رأسي تتردد تلك القصة التي سمعتُها ذات يومٍ في المدرسة عن الملك الذي كان يسير ليلًا في المدينة فسمع بنتًا تُعاتب أمها لأنها تغش الميزان ، فأُعجب بها وبأخلاقها فزوَّجها لابنه.

كبرتُ وفار جسدي ، أصبحتُ «فَرَسة» كما تقول أمي ، وقالت إن هذه هي موهبتي إلى جانب ملاحةِ الوجه وقدرتي على المجادلة. علَّمتني أن لبس العباءات الضيقة التي تُبرز مفاتني يجذب الزبائن ،

فأجلس أنا على الفرشة أبيع وأشتري ، وتجلس أمي في ركنها المظلم في الدكان ، تُراقب حركة البيع والشراء ومغازلة الزبائن لي ؛ لا تضيرها هذه المغازلةُ طالما لم تتعد حدود الكلام ، أو محاولةِ لمس يدي وأنا أنتقي الطماطم ؛ فإن تجاوزت ، تخرجُ أمي فجأةً لتمطر الزبون بوابلٍ من السباب البذيء ، الذي يدفعه إلى الركض بعيدًا وسط ضحكات الباعة.

تراكم التراب على الألوان الزاهية وعلى عينيَّ ، فلم أعد أرى سوى القرف والمجادلة وتفرُّس الناس في جسدي ، محاولين اقتطاف ما يتيسر لهم منه.. ذات يومٍ ، قلتُ لأمي إنها تُحاول بيعي كما تبيعُ الطماطم ، وأنها تُريد لي أن أمشي في الحرام ، فصفعتني قائلةً: «حرام مين يا بنت الكلب ، ده أنا أدفنك مكانك» ، ثم هدَّأت من نبرتها قائلة: «يا بت ربنا رزقك حلاوة وجسم فاير ، دي بضاعة زي أي بضاعة ، بس بضاعة مفيش زبون يلمسها ، اتعلمي تستفيدي منها لحد ما ربنا يوقع في طريقنا ابن الحلال اللي يخلصك من البيع والشرا ويستتك».

يئست من قدوم الملكِ ليزوجني ابنه عندما يرى أنني فتاةٌ صالحةٌ ، فعرفت أن أمي أدرى الناس بما ينفعني ، وأصبحتُ أفعل مثلما تريد.. أقلل الوزن

وأجذبُ الزبائن بحلاوة جسدي.. أراهم يخترقون طوق عباءتي، عندما أنحني لألتقطَ الخضراوات فيظهر منبت ثديي، فأطيل الانحناء حتى يتشبعوا وينسوا أنفسهم، ثم أفاجئهم بنظرةٍ ناريةٍ -تعلمتها منها- تُربكهم فيدفعون ثمن ما يأخذون، دون أن يتأكدوا أنهم أخذوا ما انتقوه بالفعل.. أمشي بدلالٍ في السوق، وأنا أنتشي من نظرات الناس التي تُحاول اختراق عباءتي لترى مكامن الفتنة في جسدي حتى أجلسَ على فرشتي. تعلمت ألا أنادي على بضاعتي كي لا تُخدش أنوثتي، لستُ كجارتي البلهاء التي تضعُ ابنتها جوارها، وتجعلها تُنادي على الزبائن وتمزح معهم مزاحًا رجوليًّا يُفقدها ما حباها الله، فينصرف عنها الزبائن خاصة العُزاب منهم، الذين تقول لهم دائمًا: «يلا يا ابني شد حيلك عشان أجوزك وأفرح بيك»، وهي تنظرُ فاغرةً فاها المثرم إلى ابنتها.

«سماااااااك، تعالى يا بيه، سمك نيلي معتبر يستاهل تزفر بؤك عشانه»

ألتفت لبائعةِ السمك ضاحكة، فهي صديقتي الوحيدة هنا.. لم أجد علاقاتٍ وطيدةً كما تخيلت، ولكني عرفتُ أن «عدوك ابن كارك»، أصبحت سامية صديقتي منذ أن ألقت بالسنجة في وجه أحد الزبائن

الذي حاول ملامسة جسدي ، فصفعتُه وبصقتُ كل سبابي البذيء الذي تعلمته من أمي في وجهه. نجلس دائمًا معًا بعد أن ينتهي اليوم ، فنتسامر ونسخر من الباعة مقلدين طريقة ندائِهم على بضاعتهم المزجاة.

«وآخرتها يا سامية»

فترد قائلةً: «آه بس لو الملك بتاعك ياجي ، بس يكون معاه ولدين مش ولد واحد ، ولا ناوية تطلعي لأمك وتبيعي ؟»

فأردُّ ضاحكةً: «طب وابنه هيتجوز بياعة سمك ليه يا حيلتها ؟»

فتقول: «ويعني هي بياعة القوطة هي اللي أمَلة يا أختي»

يتزايد الترابُ يومًا بعد يومٍ ، ويصبح السوق مثل المقبرة ، مظلمًا أسود كوجه الزبائن التي سحقتهم قسوةُ الحياة فقلَّ شراؤهم وقلَّ معه رزقُنا. تبحثُ أمي جاهدةً في كل زبونٍ عن عريسٍ محتملٍ ، قائلةً لي: «يا بت اخلصي خلينا نعدي الأيام اللي زي الخرا دي».

يتزايد التراب ، حتى أظن أننا دُفنَّا فعلًا ، لولا طاقة النور التي يصنعها باب السوق ، والتي أنظر لها دومًا منتظرةً أن يجيء الملك وابنه.

سيدُ الأقنعة

وقفتُ أمام المرآةِ مترددًا ، كنتُ عاريًا من كل ثيابي عدا قناعي ، حين خطرتْ لي فكرةٌ مجنونةٌ. أن أخلع القناع واستحم عاريًّا تمامًا.

نفضتُ الفكرةَ عن رأسي واتجهت للحمام ، ولكن الفكرة عادت لتطرق أبوابي الموصدة مرةً أخرى بقوة ، فعدت أقف أمام المرآة وأفكر..

أخلع القناع ؟ يا لها من فكرة حمقاء ، أبعد كل هذه السنوات أخلعه ؟

«وما المشكلة ، اخلع القناع مؤقتًا ريثما تستحم.. دع الماء ينساب على وجهك الذي نسي ملمسه»

حقًّا ، ما المشكلة ؟ أنا وحدي كالعادة ، فلن يراني أحدٌ دون قناع .. فلأجرب!

مددتُ يدي أتحسسُ القناع بخوفٍ ، أخلعه ببطءٍ ثم أعود لأثبته مرةً أخرى ، أخلع جزءًا وأثبته ، خائفٌ من رؤية وجهي بعد كل هذه السنوات.

صرختُ من الألم عندما نزعته عن وجهي دفعةً واحدةً لأغلب ترددي ، شعرتُ أن جلد وجهي نُزع معه ، أغمضت عينيَّ من الألم ، ثم تركتها مغمضةً من الخوف ، بعد فترةٍ تجرَّأتُ وفتحتها.. هل هذا وجهي حقًّا ؟ يا إلهي ما هذا التغيُّر ؟ أهكذا يكونُ تأثير السنوات على الوجوه ؟ أم أنه تأثير دفنها تحت الأقنعة ؟ هل تغير وجهي حقًّا وأصبحت ملامحُه متداخلةً أم أنني نسيت وجهي واستبدلته ذاكرتي بالقناع ؟

تصفحت جميع صوري القديمة لأرى وجهي الحقيقي ، ولكني وجدتها جميعًا بالأقنعة.

وقفتُ تحت الدُّش أستمتعُ بانسياب الماء على وجهي ، اقشعرَّ جسدي من ملمسها في البداية ولكني تعوَّدت عليه وبدأتُأستمتعُ بعد فترةٍ قصيرةٍ ، أطلتُ فترة الاستحمام والاستمتاع حتى فرغ سخَّان الماء ، فخرجتُ بعدها أستمتعُ بملمس الهواء الذي يُصافح

وجهي بحرارةٍ بعد طول غياب. حينها خطرت لي فكرةٌ أكثر جنونًا ، أن أكمل تفاعل قوى الطبيعة مع وجهي ، الماء والهواء والشمس ، وقفتُ أمام النافذة أُفكر في الأمر ، ثم واربتها قليلًا بحيث تدخل منها أشعةُ الشمس وحدها دون أن تصحبها نظراتُ الجيران المتسللة الفضولية.

يا إلهي ، ما هذا الجمال.. أنتج التفاعل طاقةً تسرَّبت من خلايا وجهي إلى روحي وجعلتني طائرًا في السماء ، ولكن سرعان ما هبطت مرة أخرى للأرض حين قررت إغلاق النافذة والتوقف عن هذا الجنون حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه.

جلستُ على فراشي عاري الوجه.. أنظرُ للقناع الموضوع أمامي. هو «سيد الأقنعة» كما أسميته حين ابتكرته ، قناعٌ يصلح لكل شيء ، ولكل المواقف. قبله كنتُ أحتفظُ دومًا بكل أقنعتي —التي أعلقها اليوم على الجدار كأنها نُصب تذكاري لميت -في حقيبتي ، أبدِّلها حسب المواقف. كم كان هذا مرهقًا ومضيعًا للوقت. حتى ابتكرت هذه التحفة الفنية. من يومها لم أخلعه عن وجهي حتى أصبح هو وجهي الذي يراه الناس ، ثم وجهي الذي أراه أنا.

ارتديتُ قناعي وقمتُلأرتب الشقة وأرتب نفسي استعدادًا لقضاء «ليلة حب حلوة» كما تقول أم كلثوم، فبعد قليلٍ ستأتي حبيبتي.

بعد أن انتهيتُ من الترتيبات اللازمة رُحت في إغفاءةٍ قصيرةٍ، أيقظتني منها قُبلةٌ من حبيبتي كالعادة، ولكني على غير العادة قمتُ مفزوعًاأتحسسُ قناعي وأتأكد من أنه مثبتٌ جيدًا على وجهي. نظرتْ لي باستغرابٍ فأخبرتها أنني حلمتُ حلمًا مزعجًا.

جلستُ جوارها على الأريكةِ بعد أن أفقتُ، أراحت رأسها على صدري فرحتُ أعبثُ بخصلات شعرها ورقبتها كالعادة. انتفضتْ مذعورةً حين عبثتْ يدي بأسفل أذنها، نظرتْ لي بخوفٍ لم أفهمه إلا حين أدركتُ أن هذا هو نفسُ مكان منبت قناعي.

إنها ترتدي قناعًا مثلي إذن، وكنتُ أحسبني المُقنع الوحيد.

عرضتُ عليها أن نقضي الليلة عاريْن تمامًا، فضحكتْ بميوعةٍ وقالت: «منذ متى قضينا ليلةً بملابسنا؟». فأوضحتُ أكثر وقلتُ لها: «نتعرى من كل شيء.. حتى من أقنعتنا»، قلتُها وأنا أعبث مرةً أخرى بمنبت قناعها.

صمتتْ ناظرةً نحوي بشكٍّ ممزوجٍ بالخوف. فأخذتُ المبادرة وخلعتُ قناعي.. شهقت حين رأتْ وجهي ، وعندما أيقنت أن وجهها لن يكون أسوأ منه ، مدت يديها بترددٍ لتخلعَ قناعها. شجعتها بأن مددتُ يدي لأساعدَها.. خلعته مغمضةً عينيْها ووجهها للأسفل خوفًا.

رفعتُ وجهها ونظرتُ له طويلًا ، كان نضرًا جميلًا ، ولكن عينيْها مختلفتان.. لا يسيل منهما الحب كما اعتدت ، جالت شفتاي تقبيلًا في كل أنحاء وجهها ، قبلاتُ شهوةٍ محمومةٍ وليست قبلاتِ عشقٍ كما تعوَّدنا ، أغلقتُ أبواب عقلي ليتوقفَ تدفق هذه الأفكار الغريبة ، لا أريد أن أضيع متعة الليلة الفريدة.

بعد أن أنهينا معركتنا رقدتْ في حضني مغمضةً عينيْها بمتعةٍ زائفةٍ. لم نكن الليلة حبيبيْن ، بل كانت فتاة ليلٍ وكنتُ أنا من استأجرها ، أعترفُ أنني تمتعتُ جسديًّا كما لم أتمتع من قبل ، وأعتقد أنها مثلي. ولكنها متعةٌ جسديةٌ مع خواءٍ داخلي لم يمتلئ هذه المرة. كنا متمتعيْن ولم نكن عاشقيْن.

قصةُ الحب لم تكن بين روحيْن وجسديْن ، ولكنها كانت بين قناعيْن.

كُسرت أبوابُ عقلي فتدفقت الأفكارُ مرةً أخرى تضربني حتى نمتُ خائر القوى ، وعندما استيقظتُ لم أجدها بجواري ، كعادتها استيقظتْ مبكرًا وأعدَّت لي طعام الإفطار وانصرفتْ.

قمتُ من فراشي واستحممتُ ، نظرتُ للسفرة في طريق عودتي فوجدتها خاليةً ، يبدو أن القناع هو من كان يُحضر طعام الإفطار أيضًا.

ارتديتُ ثيابي لأذهب لعملي ، حانتْ مني التفاتةٌ لجدار الأقنعة فوجدته خاليًا ، اختفت الأقنعة.

بحثتُ عنها وعن سيد الأقنعة في كل مكان فلم أجدها. عصرتُ رأسي محاولًا أن أتذكر مكانها ، وفتشتُ الشقة تفتيشًا دقيقًا حتى كدت أخلع بلاطها ولم أجد شيئًا.

لا بدَّأن هذه اللعينة سرقتها. يا للطمع! لِم تسرقها وهي تملك مثلها ؟ هل سرقتها كيدًا فيَّ ، أم أنها انبهرت بسيد الأقنعة فقررت الاحتفاظ به لنفسها. حتى لو انبهرت به فلتأخذه وتترك لي الباقين ، لا تتركني عاريًا هكذا. اتصلتُ بها مرارًا فوجدت جوالها مغلقًا.

جلستُ في فراشي وقررتُ عدم الذهاب للعمل ، بل عدم مقابلة أي شخص حتى أتمكن من استعادة أقنعتي ، فأنا لا أملكُ جرأة الخروج بوجهٍ عارٍ.

طال الانتظارُ وطالت غيبتُها ، لم أتوقف عن محاولةِ الاتصال بها ولكن جوالها دائمًا مغلق. اتصل بي أصدقائي في المستشفى فلم أرد عليهم ، ثم أرسلتْ لي إدارةُ المستشفى إنذارًا لطول مدة غيابي فلم أعبأ بهم ، ثم إنذارًا آخر بالفصل.

قررتُ حينها أن أخرج وأذهب لعملي وليكنْ ما يكون ، فلن أسمح بانضمام عملي لقائمةِ خسائري أيضًا. يكفي ما خسرتُ ولأحاول أن أصنع قناعًاآخر فيما بعد ، وأقنعتُ نفسي بأنها تجربةٌ جديدةٌ سأستمتعُ كثيرًا بخوضها ، تجربة العري.

هل جُنَّ الناسُ جميعًا ؟ طوال الطريق من منزلي للمستشفى والجميع ينظر لي باستغرابٍ وتعجب ، البعضُ يُمصمصون شفاههم والبعض يضحكون والبعض ينظر نحوي بأسىً. ما بالكم أيها المتخلفون ؟

لم أعبأ بهم ، ولكني وجدتُ زملائي في المستشفى يفعلون نفس الأفعال التي لم أفهم سرَّها إلا حين حمل

الهواء إليَّ مناجاة زميلين يقول أحدهما للآخر: «هل جُنَّ الدكتور؟ يظن نفسه بطلًا خارقًا ويرتدي قناعًا ؟!»

عِتقُ رقبة

متى استطعتِ أن تمتلكي قلبي؟ وبأي الأسلحة اقتحمتِ الحصون؟ أم أنني أنا الخائن الذي فتح البوابات؟

كنتُ قد أقسمتُ قبلكِ ألا أحب قط، ولكن القسم خُلق ليُحنَث به ويُكفَّر عنه بعتق رقبة، ولكنني عبدٌ لا أملك رقابًا لأعتقها، فاعتقي أنتِ رقبتي.

لا تُصدقيني وتعتقيها، فأنا لم أكن حرًّا سوى وأنا عبدٌ لكِ.

كم كنتِ ذكيةً حين اقتحمتني بسلاسة الماء دون أن أشعر، شغلتِ فراغ حياتي كله حتى أصبحتُ

اليوم لا أقدر على الحياة دونك، ولكنني الآن فهمتُ أنك لم تقصدي اقتحامي، فأنتِ شغلتِ فراغي وشغلتِ بي فراغك، فامتزجنا معًا دون أن نشعر.

يدورُ الآن حولي هذا الملعون، لا يتركني كي أنعم بوحدتي أو بوجودي معكِ، كم مرة عليَّ أن أقتله كي يختفي من حياتي؟

«ألم تدرك بعدُ أيها الأحمق أنني لا أموت ؟»

سأجد لك حلًّا يومًا ما، ولكن اغرب عن وجهي الآن.

لنعد لحديثنا..

كانت أولى محاولاتي قتله قبل أن أقابلك بعامٍ تقريبًا، كان أقرب إليَّ مني ولكني كرهتُه وأقسمتُ أن أُخرجه من حياتي، أبى أن يخرج فقتلته، وظننتُ أنني نجحت.

تغيرتْ حياتي بعدها وشعرتُأنني أخفُّ وزنًا لدرجةٍ تُمكنني من الطيران والسمو، أحببتُ حياتي كثيرًا، وكان جزاء حبي لها هو أنتِ.

عرفتك، وتقربت منك دون أن أريد شيئًا سوى صداقتك، كنتُ أرتاحُ كثيرًا حين أتحدث معك في أي شيء، وفجأةً وجدتك أقرب إليَّ مني، وعرفت أنني أحبك.

حبٌّ عاجزٌ لا يقدر على الحركة، لا أقدر على البوح لكِ كي لا أخسرك. فأنا أعلم أنك خسرتِ أعز أصدقائك بسبب أنه أحبك وأنت لم تبادليه حبًّا بحب، ولم تسمح لك براءتك أن تخدعيه. وأنا أيضًا مثلك، بعد أن قتلته خسرت إحدى صديقاتي لنفس السبب، وقتها عاد إليَّ المأفون وحاول إقناعي بأن أوهمها أنني أحبها أيضًا وأقضي معها وقتًا جميلًا — في ظنه — حتى أسأم منها وأتركها، ولكنني رفضتُ وخسرتها.

لهذا قيدتُ حبي ووأدته في أعماق صدري كي لا يشعر به أحدٌ، وقررت أن أستمر صديقًا لكِ فقط، مقنعًا نفسي بأن هذا أفضل، على الرغم من أنني كنتُ أشعرُ أنك تُبادليني الحب، ولكني لم أثق في إحساسي قط .

ولكنكِ كنتِ تتسربين يومًا وراء يومٍ إلى قلبي، وتملئينه عن آخره، لم يعد يهتم بسواكِ، تتسربين وتحتليننني وأتعذب أنا أكثر.

أصبحتْ أحاديثُنا نارًا تحرقُ قلبي وعاد هو إليَّ بقوةٍ يُحاول أن يُقنعني بالبوح، مذكرًا إياي بقدراتي على الإقناع، فأصبحتُأحاربُ على جبهتين، أقاتله لأبعده عنَّا، وأكتم أنفاسي كي لا تشعري من حرارتها بحبي لكِ.

«كرهتُكَ منذ أصبحتَ أحمق، ولكنني لن أتركَكَ حتى تعود صديقي الذي عاشرُته سنوات»

اغربْ عن وجهي، لستُ صديقك بعد الآن، لم لا تفهم أنني لا أريدك في حياتي؟

بعد أن يئس من إقناعي، أصبح جدارًا بيني وبينك، لا يفعل شيئًا سوى جعلي أختنق من أحاديثنا التي لا أرتاح إلا بها، يُلهيني دومًا بأن يجلس بيني وبينك ويرسم أشكالًا في الهواء لا يفهمها إلاي، أو يجلس على كتفكِ ويضحك وهو يعبثُ بشعرك، أكتم غضبي كي لا تظنيني مجنونًا يتشاجر مع الهواء.

وبعد أن تذهبي أركض وراءه حتى أمسكه وأقتله، يختفي عدة أيام ثم يعود مرةً أخرى، أشرس، وكأنه أخذ عهدًا على نفسه بأن يجعلني أتركك.

كيف تُريديني بعد كل هذا إلا أن أبتعد عنكِ وأتركك؟

ولكنني حين قررتُ أن أتركِ أكدتْ صديقتك إحساسي وأخبرتني أنك تحبينني، وأنكِ أيضًا تخافين البوح كي لا أخسرك. ظننتُ أن هذا يوم حظي، وقررت أن أعترف لكِ بحبي.

«هاهاهاهاهاهاها»

من يخلّصني من هذا المأفون الثقيل مقابل نصف عمري.

كأنه قد شعر بقرب خسارته وفشل أسلحته أمام دفاعاتي فأصبح أكثر شراسةً، يُحارب بكل ضراوةٍ كي أظل صامتًا ولا أعترف لكِ بحبي، فهو يعتقدُ أنك ستملّين صمتي وتتركيني. وصل به الأمر إلى حدِّ صفعي كلما حاولتُ إخبارك، إلى جانب محاولاته دائمًا تذكيري بما يمكن أن يحدث في عَلاقات الحب وأننا سنختلف كثيرًا حتى يقع ما أخشاه ونفترق.

لن أنسى نظراتكِ لي في آخر لقاءٍ بيننا، كنتِ تنظرين لي كأنني مجنون، لمحتُ الخوف في عينيْكِ للمرة الأولى منذ عرفتكِ، أصبحتِ تخافين مني بعد أن كنتُ أنا سندك الذي تطمئنين لوجوده بجوارك.

ولكنك لاتعلمين لِم خرجتُ عن شعوري وألقيت المقعد في الهواء، لم يكن الهواء بل كان هو.

غيَّر من استراتيجيته وقد ظنَّأنه وجد جدارًا هشًّا في حصني فوجَّه مدفعيته نحوه، قرَّر أن يتركني أبوح لكِ، وأنعم بحبكِ، ولكن على طريقته هو. ضرب مدفعيته محاولًا أن يُغير نظرتي لكِ، لم يعجبه أنني لا أرى فيكِ سوى روحكِ، فحاول أن يكسوها جسدًا ويُرغبني فيه، يضرب بكل قوته قائلًا أن الحب لا يكتمل إلا بالامتزاج الجسدي، قاومته كثيرًا ولكن مدفعيته لم تتوقف عن الضرب، وأنا لم أتوقف عن تقوية الجدار.

في آخر لقاءٍ وجدته جالسًا على المقعد المجاور لك، ظل ينظر لي ويضحك، ثم حاول أن يعبثَ بجسدك، عندها لم أعِ ما أفعل وألقيت المقعد عليه صارخًا فيه بألا يمسَّكِ.

بعدها بلحظاتٍ أفقتُ لنفسي ووجدتُ كل رواد المقهى ينظرون ناحية طاولتنا بذهول، ووجدتُ في عينيْك مزيجَالخوف والقلق والحسرة، لم أحتجْ أكثر من هذا لأفهم ما يدور داخلك، ولم أستطعْ أن أشرح شيئًا لأن أي كلمةٍ ستُدينني أكثر، اكتفت دموعُنا بالحديث.

طلبتُ منكِ بعدها أن نغادر المقهى. ولكنني لم أطلب منكِ أن تغادري حياتي، لم أطلب منكِ أن تعتقيها، فحياتي غادرت معكِ وتركتني، أعتقتِني فأصبح عتقي موتًا.

فلترقصْ

تألقت الحلبةُ تحت الأضواء المتراقصة، تدورُ بقعُ الإضاءة بألوانها صانعةً جوًّا من الجنون، وتبدأ الموسيقى معلنةً بداية الرقص.. ينقسمُ الحضورُ نصفين، ثم يلتحم كل نصفٍ مع نصفه الآخر ليبدأ المشهد.

وحيدًا على حافة الحلبة، ينظرُ إليهم أزواجًا متمايلين، فينشط الثقب الأسود في قلبه، ويسحب كل الأضواء والأصوات من حوله، ويتركه في ظلامه يتحسر على أيام كان له فيها شريك رقص لا مثيل له -في نظره-.

يتمنى مغادرةَ الحلبة، ولكنه يعلم جيدًا أنه لم يدخلها ولن يُغادرها بإرادته. يتأمل الراقصين

والراقصات ، بعضهم يستمرُّ معًا للأبد ، والبعض الآخر يغيّر رفيق رقصه ليناسبَ تغيُّر الموسيقى. ليس كل الشركاء سواء ، فبعضُهم يُناسب الفالس ، وآخرون للإيقاع الشرقي ، وغيرهم للتانجو.. ولكنه ليس مثلهم ، فهو يرغبُ في شريكٍ واحدٍ لا يستبدله ولا يُشرك به أحدًا.

يُركز ناظريْه مع الراقصات ، يُتابع حركة أجسادهن البضة ومفاتنهن التي تتقافزُ معلنةً عن نفسها بقوة ، فتهيج شهوته لتختلط بمشاعره ، صانعةً كأسًا كلما شرب منه ازداد عطشًا. تلفتُ انتباهه زهرةٌ تقف وحيدةً على الحافة الأخرى من القاعة ، تطوي بتلاتها لتُخفي نفسَها وتتأمل بدورها الراقصين ، ويتخيل هو أن عينيْها أيضًا تسكب الحسرة مثل عينيْه.

يقتنع بها شريكًا مثاليًّا لرقصته ؛ ولكنه يحجمُ عن الاقتراب منها ، خوفًا من أن يكونَ لها شريكٌ سيأتي بعد قليل. يظل مكانه منتظرًا ظهور ذلك الشريك ولكن الوقت يمر ، والرقصة تنتهي ، وتصدح الموسيقى معلنةً عن الرقصة الجديدة ، فينفك رباط بعض الراقصين ببعضهم.. يبكي الراقصون المفارَقون ، وتنتحبُ الراقصات المفارَقات ، وينتهي مخزونُدموعهم سريعًا ، ويلتحمون بشركاء آخرين ، ليبدأوا الرقصة

الجديدة.. وهي واقفةٌ تتأمل ، وهو واقفٌ يُصارع عقله وخجله.

خطا نحوها مسرعًا كي يغلب تردده.. لحظت هي قدومه في اتجاهها ، فتشاغلت عنه بمتابعة الراقصين ، حتى وقف قربها دون أن ينظر إليها. شعر بحرارته ترتفع وقلبه يخفق بقوةٍ ، خوفًا من الرفض ؛ فهذا هو أسوأ مخاوفه.

ظل واقفًا قربها ، يتفرج على الراقصين حتى ملَّ ، فبدأ معها حديثًا عابرًا عنهم. لم تنفر منه ، بل تخيل هو أنها ردَّت عليه بلهفة ، خشيةً أن يقطع كلامه ويتركها وحدها مرة أخرى. تحدثا عن فنون الرقص ، وكيف يقع الراقصون في أخطاء ساذجة لا يقع فيها الأطفال.. تدريجيًّا ، تجرَّأ وطلب منها أن تشاركه الرقص..

رقص قلبه فرحًا وهو يدخل الحلبة معها.. إنه لم يعد وحيدًا ، ولم يعد هدفًا لرصاصات الشفقة والعطف المنطلقة من أعين الراقصين.. تمايلا ، ودارا دون أن يتماسَّا.. امتزجت الموسيقى في آذانهم فأصبحتْ شرابًا يروي روحيهما ، أسكرهما فنسيا مَن حولهما من الناس ، حتى أذَّن المؤذنُ بانتهاء حفل الليلة ، وعودة

كل الراقصين إلى أعمالهم ، من صيانة وتنظيف الحلبة وما حولها كي لا تتلف.

نظر كلٌّ منهما للآخر في امتنانٍ ، قال لها: «هل تراقصينني غدًا ؟» فابتسمتْ بحياءٍ دون أن تُجيب. حياؤها كان دليلًا كافيًا على أنه لن يقضي الغد وحيدًا.

ومضت الأيام ، وهو يقابلها كل ليلة ، يرقصان معًا ، يضحكان ويتحدثان كلما أرهقهما الرقص ، يفترقان على أملٍ في لقاءٍ آخر دون وعدٍ. كلاهما لا يعتبر الآخر نصفه ، ظنَّته حزِن عندما أخبرته بأنه ليس شريكًا لها إلا لفترةٍ لا تعلم مداها ، ولكنه فرح لأنه لا يُريد أي التزام برباطٍ أبديٍّ مع راقصةٍ يميل لها جسده لا قلبه. استمرَّا في حالةٍ نِصفيةِ الهوى ، ظلت تتطور ، باتا يرقصان متشابكي الأيدي.. ثم تبادلا الأحضان والقبلات خلسةً في أثناء الرقص.. ثم علانية دون أن يأبها بأحد! ذاق معها ما لم يذقه مع رفيقته الأولى.. شعر بجمال أن تروي ظمأك دون أي التزام.. أن تخدع الناس ، وتوهمهم أنك غارقٌ حتى أذنيك في بحرٍ من العسل ، ولا يدرون أنك لم تتخط الشاطئ أبدًا.

وظلت هي ترقصُ معه ، وتفرح.. فهي تعلم كيف ينظر الراقصون لراقصةٍ بلا شريكٍ.. لقد كفاها مؤونة

الشفقة ، وأعطاها ما تريد. ولكنها الآن سئمت الحالة ، وأرادت أن تضمن وجوده معها أبدًا. تناست أنها هي التي أخبرته بأنهما معًا لفترةٍ مؤقتةٍ ، ريثما تنال من تريد. لكن بدا أن بلوغَ المراد محال ، فليحل هذا الذي تظنه خاتمًا ترتديه وتخلعه كيفما تشاء محل من لم يأتِ.

جاءها مبتسمًا مادًّا يديْه لترقصَ معه ، فنظرت له بفتورٍ ولم تمد يدها. اضطرب ، وألحَّ في سؤالها ، ولكنها قابلت طلبه بالرفض. وعندما طلب معرفة السبب ، أخبرته أنها سئِمت ، وأنها تُريد إمَّا أن ترقص معه للأبد ، أو لا يرقصان قط.

أُسقط في يده ، ولم يدرِ ماذا يفعل. ولكنه ، ليلملم كرامته ، نظر لها بسخريةٍ وقال لها: «تذكري أنه اختيارك». وذهب إلى مكانه القديم يُتابع حركة الراقصين.

شعر أن كل الراقصين قد تباطأت حركاتُهم ، وأنهم ينظرون له بشفقةٍ أثناء دورانهم. نظراتهم كانت تخترقُ عينيْه ، وتعتصرُ روحه حتى تصلَ أسفل قدميْه ، فيزيد دق كعبيْ حذاءيْه للأرض ، حتى كاد يخترقها. ارتدى درع الاشمئزاز ، ونظر لهم بقرفٍ وبصق على الأرض ،

فاختلطت الابتساماتُ الساخرةُ بالنظرات ، ليزيد معها دقُّ كعبيْه للأرض.

انقضَّ ركضًا على الحلبة وهو يقول لنفسه: «سأريهم كيف أستطيع الرقص والمتعة وحدي». اعتلى الدرجات التي توصله إلى المستوى المقدس ، الذي لا يرقص عليه إلا أبرعُ الراقصين. وجم الراقصون ، وقد شد أعينهم بانقضاضه.. استمرَّ ينظر لهم بقرفٍ ، ثم نظر للسماء ، ورفع ذراعيْه بمستوى كتفيْه ومدهما لآخرهما. ارتكز برجلٍ واحدةٍ على سطح المستوى الصلب ، وأخذ يدفع بالرِّجل الأخرى ، ليتحرك جسده في حركاتٍ دائريةٍ حول محوره.

زادت سرعةُ دورانه ، وزادت معها نشوتُه وهو ينظر للمشدوهين حوله.. زاد سرعته أكثر ، فلم يعدْ يراهم ولا يسمعهم.. يسمع فقط إيقاعات الموسيقى التي يرقص عليها. رفع ذراعيْه نحو السماء ، فأصبح كالكأس التي يتلقى الدفقات الروحية من السماء.. ثم هبط بذراعيْه ، وكأنهما قد قُيدا للأرض ، ليوزع هذه الدفقات على جميع الناظرين.

زاد سُكره بنشوته ، وتداخل إيقاعُ الموسيقى مع نبضات قلبه المتسارعة ، ليُطربا أذنيْه. فقد الإحساس

بالمستوى الصُّلب الذي يقف عليه ، وشعر بأنه يدور في الهواء ، كالإعصار الذي أتى ليحطم كل المقدسات والتابوهات التي ملأت عقول البلهاء. ظل يدور ويدور ويدور ، حتى خانته قدماه وسقط فاقد القوى.

نظر لها بعينيْه اللتين أحرقهما العرق المنهمر منه ، وابتسامة الانتصار تعلو وجهه ، فوجدها تنظر له دامعةً مشفقة. اغتاظ ، وأشاح بوجهه بقوة ، فالتقى نظرُه بالمرآة التي بجواره ، فوجد مكانه في المرآة شيخًا متهالكًا لا يقوى على الوقوف.. تهالك عندما رآه ، وشعر بالبرد الشديد يجتاح أطرافه..

بحث عمَّن يُدثره فلم يجد ، فحضن نفسه بذراعيْه ، وعاد لوضعه الجنيني متلمسًا الدفء.

في انتظارِ الهبوط

عزيزي الراكب.. استرخِ في مقعدك ، لا داعي لربط الحزام ، فمهما كانت متانةُ أحزمتك ستتمزق. ستقوم صداقةٌ بين الجدران ورأسك من كثرة ارتطامه بها.

ضعْ سماعة الأذن وارفع صوت مشغل الموسيقى لأقصى درجة ، ماذا؟ هل ما زلت تسمعُ ما يحدث حولك ، هذه هي القواعد ، محاولات انفصالك عما حولك لن تفصلك عنه ، وستكونُ كالطفل الذي يُغمض عينيْه متخيلًا أنه بهذه الطريقةِ يُخفي ما أمامه.

ستجد أن أحد الركاب أصبح جالسًا على رِجلك ، أو أنك أصبحتَ جالسًا على رِجله ، لا تقلق ، فهي عَلاقاتٌ طبيعيةٌ تقوم بين الركاب وبعضهم ، تدوم طويلًا أو لا تدوم ، فهذا قرارنا نحن.

ستجد على يمين مقعدك علبة ألوانٍ وفرشاة.. استخدمها كما تشاء. ارسمْ لوحةً جميلةً على الجدار تسرُّ الناظرين ، أو ارسمْ شيئًا بوهيميًّا لا يفهمه أحد ، ولا حتى أنت. جمِّل بها وجهك ، أو لطخه ، فهذا هو مجال حريتك الوحيد.

تُريد أن تنزل ؟ هل ركبت بمحض إرادتك كي تريد النزول ؟ نحن من جعلناك تركبُ ونحن من سننزلك أيضًا ، فاسترخِ وحاولْ الاستمتاع.

لا تقاوم.. فالمقاومةُ تزيد من الألم وتُفقدك لذة الاستمتاع به ، وهي اللذة الوحيدة هنا كما ترى.

ستجد أن كل شيءٍ حولك يتغير وأنك الثابت الوحيد ، لا تغترَّ كثيرًا ، فأنت مثلهم.. ثابتٌ حتى نسأم منك ونقرر تغييرك.

اقبل الأمر أو لا تقبله ، فقبولك وعدمه سيان. لن يغيرا شيئًا سوى أن عدم قبولك سيُفقِدك المتعة.

أود أن أتمنى لك رحلةً سعيدةً ولكنك تعرف أن: «ما نيْلُ المطالب بالتمني»

قادمٌ لن يأتي

(قصة تفاعلية، كُتبت بمشاركةِ القاصَّة الجميلة نسمة طارق)

فتح عينيْه ليجدَ نفسه وسط السُحُب, أو هكذا تخيل، يغشاه سحابٌ خفيف، يشوش الرؤية ولا يمنعها تمامًا، حوَّل كل طاقة جسده لعينيْه حتى يتمكن من تحديد مكان وجوده، بدا له أنه يرى مقاعد مصفوفةً وحقائب سفرٍ، وسمع أصوات طائراتٍ بعيدةٍ، يبدو أنه يجلس في صالة انتظارٍ بمطارٍ ما.

ولكن ما الذي أتى به إلى هنا؟ فهو لن يسافر. فكَّر كثيرًا في السفر والهجرة ولكنه لم يستطع، في البداية كان المانع هو أهله، لا يريد أن يتركهم ويذهب، ثم بعد ذلك لم يجد الفرصة التي تسمح له بالسفر بطريقةٍ شرعية.

انتابه الذعرُ وقرَّر أن يبحث في هذا الخلاء عن أي شخصٍ ليعرفَ منه أي شيء.. سار كثيرًا في أماكن لا يُدرك ما هي حتى وجد خيال شخصٍ يُحاول أن يقوم من رقاده ، ذهب إليه ليساعده على الوقوف ، فوجدها زوجته.

دفنها في حضنه ليحميها ويحتمي بها من خطرٍ مجهولٍ لا يعرف كنهه ، ولكنه يعرف أن وجوده وزوجته في مكانٍ لا يعرفانه لغرضٍ لا يعرفانه أيضًا هو الخطر بعينه.

ما كاد الأمانُ يتسرب إلى قلبه حتى تحوَّلَ للذعر عندما اختفت زوجته من حضنه كأن لم تكن وأصبحتْ يداه غارقتيْن في الدماء ، نظر لقطرات الدم المتساقطة من يديْه في ذهول ، تابعها بناظريْه وهي ترتطم بالأرضية البيضاء وتزداد مساحتها وتزيد معها حجم إثمه العظيم.

متى بدأ الإثم؟ عندما عشقها؟ أم عندما قرر أن يتزوجها ليتوج عشقه بالنهاية الطبيعية في بلدٍ غير طبيعي ؟

ظنَّ نفسه يستطيع أن يبني لها سفينة نوح ، ولكنه بُلي بقومٍ لم يكتفوا بالسخرية كقوم نوح ، بل تلذذوا

بتدمير محاولاته لبناء السفينة وتكسير ألواحها ، لا ينجون بأنفسهم ولا يتركونه ينجو بحياته وحبيبته من بركة الماء الآسن التي يعيشون فيها منتظرين الطوفان ، عندها قرر أن يكتفِي بضحيتين ولا يُحضر إلى العالم الضحية الثالثة: (عليّ) الابن الذي طالما تمناه هو وزوجته ، ولكنه اكتشف أنهما سيأتيان به ليعاني مثل معاناتهما وربما أسوأ ، ولن يكون أمامه سوى خيارٍ من اثنين ، الموت بعد عذابٍ شديد ، أو التحول لطحلبٍ يعشق الماء الآسن ، وهو لن يرضى بأي الخياريْن لابنه.

«آهٍ يا حبيبتي.. طلبتُ منكِ مرارًا أن تتركيني ، أن تتزوجي بآخر يقدر على جعلك كاملةً.

لم أستطع أن أعطيكِ سوى الحب والمعاملة الحسنة ، ولكني حرمتك من الكمال ، حرمتك من الحمل والولادة ، منعتكِ من دخول قدس أقداسك الذي لا شريك لكِ به.

تعلمين أنني لم أتعمد هذا ، وأنني حاولتُ جاهدًا أن أمنحك الكمال ، ولكنني فشلت ، وما زلت أحاول ، وما زلت أفشل ، فكل الظروفِ ضدنا.

طلبتُ منكِ مرارًا أن تتركيني وتتزوجي بآخر لا يكون مجنونًا مهزوزًا مهزومًا مثلي ، ولكنكِ تُصرين على أن تظلي كاملةً في عينيَّ ، تُصرين على أن تظلي الحب مجسدًا».

حتى جاء ذلك اليوم الذي تفجَّر فيه حلمُ الأمومةِ فهتك شرايين يدها ، وتركه وحيدًا في هذا العالم الذي لا سند له فيه غيرها.

وها هو ذا يقف أمام فراشها في المستشفى ، يُحاول أن يدورَ بالفراش حتى لا يتمكن الموتُ من رأسِها فيقف عنده ويسحب روحها ، ويسحب روحه معها ، باكيًا متوسلًا إلى الله أن يُعيدها إليه فهو الأعلم بحاجته لها ، يُناجيها ويُعاهدها إن تمكنت من النجاة أن يُحضر لها عليًّا وأن يبني سفينة نوحٍ ليتمكن ثلاثتهم من النجاة.

*****

ظلامٌ حالكٌ حولها ولكنها ترى من خلاله جيدًا ، تسبح في هواءٍ ثقيل كأنه ماء البحر.

استجمعت ذاكرتها لتعرفَ كيف أتت إلى هنا؟ كانت هادئة الأعصاب لدرجةٍ أدهشتها ، هي التي تخافُ

الوحدة وتخافُ الظلام تسبح الآن فيهما غير مباليةٍ أو شاعرةٍ بالخوف.

الآن تذكرت ، الموسى والشريان وذلك التزاوج الذي حدث بينهما وأدى إلى هتك الثاني ، آخر ما تراه هو سائلُ الحياة الأحمر يخرج منه ليرسم لوحة اليأس على أرض الحمَّام.

عندما أخبرها أنه لن يحضر لهذه الأرض من يدعو عليهما يومًا لأنهما أحضروه من عالم الغيب لهذا الواقع القبيح ، أراد أن يكون عادلًا وأخبرها أنها في حلٍّ من عهدهما وسيظل يحبها كما كان.

«الطلاق؟ يخيّرني بينه وبين حلم الأمومة ، ولا يعلم أنهما حلمٌ واحدٌ. حلمت أن أكون أمًّا ، شريطة أن أكون أمًّا لطفلٍ هو أبوه. فهو نصف الحياةِ والأمومة نصفها الآخر ولا غنى لي عنهما معًا. بعد تفكيرٍ مختلطٍ بالاقتناع اليائس بصوابِ رأيه قررت أن أكمل حياتي معه ، أن أكمل بالنصف الذي خبرته وأحببته.

شاهدتُ فرحة صديقاتي بأطفالهن ومزقتني لمعةُ الكمال التي تطل من أعينهن ، واسيتُ نفسي بأن الله أكرمني بزوجٍ لم تُنجب الأرضُ مثله ، ولكن المواساة تحوَّلت لعادةٍ فقدتْ معناها وتأثيرها ، ورويدًا حلَّ

اليأس مكانها ، حتى أجبرتُ شرياني على الزواج من الموسى».

شعرتْ بصوتٍ باكٍ محببٍ للنفس يجذبها من بحرها الأسود: صوت زوجها الباكي يطلب منها أن تسامحه وأن تقوم من رقدتها وتستعيد رونق الحياةِ ويعدُها بأن يحضر لها عليًّا وأكثر من عليٍّ ، شعرتْ به يمسكُ كفها اليمنى ، يلثمها وتختلط قبلاته بدموعه بدعواته في مزيجٍ بثَّ الحماس في قلبها لينبضَ بقوةٍ ويتحرر من سجنه الأسود ليعودَ للحياةِ مرةً أخرى.

ظل السوادُ يطغى وينحسر وكأن النهار قد أرسل جنوده ليغزوا الليل في معركة الحياة ، وتحجَّرت وهي تراقب المعركة الشرسة لترى من سينتصر.

ليلة مات الشاه

«هل تقبليني زوجًا لكِ ؟»

قالها دفعةً واحدةً بعد تلعثُمٍ طويلٍ ، قالها وصمت منتظرًا ردَّها.

نظرتْ له ببلاهةٍ وكأنه تحدَّث بلغةٍ لاتفهمها ، ثم ظنَّت أنه يمزحُ كعادته فانفجرتْ ضاحكةً ، احمرَّ وجهُه ونظر لها معاتبًا فصمتتْ وعادتْ للبلاهة من جديد.

أدركتْ أنه لا يمزح ، ولكن يبدو أنه قد جُنَّ.. فلا أحد يطلبُ الزواج من أخته.

قرأ أفكارها وردَّ عليها قائلًا: «أنتِ لست أختي ، تربينا معًا ، كبرنا وكبُرت معنا صداقتنا الفريدة ولكن ليس هناك رباط دمٍ بيني وبينك».

«ألم تقلْ لي دومًاإن رباط الدم لا يعني شيئًا ، والمهم هو تفاهمنا الشديد».

«نعم قلتُ ، ولكني غيَّرت رأيي الآن ، أريدكِ زوجةً لي ، فلن أجد على ظهر الأرض ولا في باطنها من تشبهك » .

رفضتْ بشدةٍ طلبه وتركتْه ومضت. كان يعلم أن هذا ما سيحدث كما يعلم أيضًاأنه لن ييأس وأنها ستوافقه في النهاية.

****

قبل عامين اتصلتْ به منهارةً ، أخبرته أنها تُعاني من اكتئابٍ حادٍّ بسبب أهلها ومعايرتهم الدائمة لها بعدم الزواج حتى قاربت الثلاثين.

أوصاها الطبيبُ بتناول عقاقير مهدئةٍ ومنومةٍ وتواظب عليها لتخفف من حدة الاكتئاب.

يومها انفجر لاعنًاأهلها وحظها العاثر الذي أوقعها ، هي الملاك ، وسط هؤلاء الأوغاد ، وحذَّرها بشدةٍ من تناول أي عقاقير مهدئة أو منومة لأنها كالمخدرات ، مدمرةً للجسد والإقلاع عنها يحتاج لمعجزة.

****

حرَّك اللاعبُ قطعته الأولى على الرقعة.

****

امتنعتْ عن الاتصال به ، والرد عليه. كانت مذهولةً من طلبه. نعم ، هي تتمنى زوجًا مثله في كل شيء ، ولكن ليس هو ، لا تستطيع أن تتخيل نفسها زوجةً له.

لجأ هو للخطوةِ التالية ، طلب من كل صديقاتها إقناعها بقبول الزواج ، وقد قمن بالدور على أكمل وجه ، تكلمن معها كثيرًا واستمرَّت هي في الرفض واستمررن في الإلحاح حتى انهارت دفاعاتُها ذات يومٍ ووافقت.

****

كانت تشكو له دومًا مما تُقاسي من أهلها ، لا أحد يُراعي حزنها ، لا أحد يفهم أنها أيضًا ترغبُ بشدةٍ في الزواج ، فهو في نظرها الطريقُ الأمثلُ للخلاص منهم ، عقولهم كانت صماء عمياء ذوات ألسنٍ طوالٍ كالسياط لا ترحم ولا تراعي ضعفَ الضحية التي تجلدها.

ازدادت حدةُ اكتئابها ولجأت إلى العقاقير على الرغم من كل تحذيراته وتعنيفه لها. كان هذا الحل هو بصيصَ الأمل الوحيد الذي ترى أنه سيُريحها ولو قليلًا.

كان يشاهدها تذبلُأمامه عاجزًا عن فعل أي شيء سوى البكاء على «نصفه الآخر» كما كان يُسميها.

****

حرَّك اللاعبُ قطعته الثانية على الرقعة.

****

تمَّت الخِطبةُ أخيرًا ، حاول إقناعها بجعل فترة الخطوبة قصيرةً لا تتجاوز الشهرين ولكنها أصرَّت على أن تستغرقَ عامًا كاملًا حتى يتسنى لها أن تُجهز نفسها خير تجهيز.

لم تتغير عَلاقتهما خلال فترة الخطوبة ، ظلا صديقين ، وكانا يشعران أن هناك شيئًا خاطئًا في هذه الحال ، ولكن أصدقاءهما أخبراهما أن هذا طبيعي لأن عَلاقتهما وصلت بالفعل لقمتها منذ سنوات ، ولا شيء بعد القمة. كلاهما يرى الآخر أهم وأجمل

ما في حياته ، حبهما كان من نوعٍ مختلفٍ ، لا يتميز بالعواطف الجياشة المندفعة ، بل كان حبًّا مطهوًّا على نارٍ هادئةٍ ، وصل معها التفاهم والمودة لقمة النضج ، وهذا هو الحب الحقيقي الذي يدوم.

****

يبدو أن اللاعب سينتصرُ في هذه المبارة ، فهو يتحرك بخطواتٍ ثابتةٍ نحو الهدف ، أما حركاتُ خَصْمه فهي عمياء بلا هدف ، مجرد «حلاوة روح» يُحاول أن يصنعَ بها أي مكاسب تخفف قليلًا من مرارة خسارته.

ابتسم ساخرًا ، وحرَّك قطعته الثالثة.

****

ليلةً ملكيةً كانت.. كانا يرقصان معًا والسعادة تتناثر من لآلئ فستانها وسواد حلته على كل الحضور. تناثرت الفرحةُ مع الورود المتناثرة حولهم ، فأُصيب الحاضرون جميعًا بعدوى السعادة والرقص حتى انتهى الحفل ، ليلةٌ تستحق لقب ليلة العمر. وصلا لعُشهما الجديد. حملها بين ذراعيْه ودخل بها الشقة.. كان الخجل والخوف يرسمان على وجهيْهما لوحاتٍ بوهيميةً استطاعا التغلب

عليه مؤقتًا.. هو بجنونه وهي بسحر ابتسامتها. تناولا عشاءهما وجلس كل منهما ينظر للآخر في صمتٍ.. الآن حان الوقتُ، لم يدرِ أيٌّ منهما كيف يأخذ زمام المبادرة ولو حتى بالكلام.. بعد صمتٍ قليلٍ قال لها: «هيا لنغير ثيابنا». ارتدى هو المنامة وجلس على طرف الفراش ينتظرها. أوشكت عيناه على الخروج من محجريْهما إعجابًا بجمالها الذي لم يره من قبل. وهي تحوَّل لونُها للأحمر خجلًا من هذا اللاثوب الذي ترتديه ويكشف جميع مفاتنها. شعر بكل شيء حين رآها ما عدا شيئًا واحدًا.. الشهوة. لم يشعر أنها زوجته وأنه بعد قليلٍ لابدَّأن يُضاجعها. كل أعضاء جسده غير مقتنعةٍ بأنها زوجته. وهي كانت تنظرُ له مكسوفةً كما لو أن أخاها قد فاجأها في غرفة نومها، وليس أن هذا زوجها، جسدها هي أيضًا عاجزٌ عن الاقتناع. قاومت بكل إرادتها حركة يديْها التي تبحث عن شيء تُغطي به جسدها. وقاوم هو أيضًا حركة يديْه الساعية لنفس الغرض. جلستْ أمامه على الفراش صامتةً تنظر للملاءة وتنتظر أن يبدأ. ظل هو جامدًا كالتمثال لا يقدر أن يحرك يده ليلمسَ جسدها. ولا يجد الرغبة لديه ليفعل ذلك.

نظر لها مبتسمًا بمرارةٍ ثم أدار ظهره قائلًا: «تصبحين على خير». أغلق عينيْه ليمنع انسياب الدموع منهما.

****

«مات الشاه»

نظر اللاعبُ للرقعة بوجهٍ رُسمت عليه ملامحُ عدم التصديق مختلطةً بالبلاهة ، كيف تحوَّل سيرُ المباراة من انتصارٍ قريبٍ لخسارةٍ هبطت عليه كالصاعقة.

كان يظن أن حركات خَصْمه عمياء بلا هدف ، ولكنه الآن أدرك أنه كان يلعب كما يُريد خَصْمه.

مِن مُذكّرات خاسر

16 فبراير:

لم أفكر قبل اليوم في كتابةِ مذكراتي. وكلما أمسكتُ القلم وجدتني أخط خطوطًا عشوائيةً تُشبه لوحةً سرياليةً تُعبر عن اللاوعي الجمعي في محاولة فهم ثقب الأوزون!

كانت حياتي عاديةً جدًّا ، عاديةً لدرجة أن لا شيء فيها يُساوي ثمن الحبر الذي يُكتب به. أما اليوم فلديَّ الكثيرُ مما أحكيه.. أشعر أن شيئًا ما قد تغير.

كنتُ مدعوًّا لحفل توقيع روايةٍ جديدةٍ لصديقي المقرب وذهبت معه على الرغم من عدم اهتمامي

بالأدب ، حتى أكونَ جواره في هذا اليوم الذي يُعِده كيوم زفافه.

في الحفل اختُطِفت ، لا لا.. لم تختطفني عصابة ، فأنا لا أملك ما أُساوَم عليه ، وهذا بالمناسبة ما يجعلني في موقف قوة ، فمن لا يملك شيئًا لا يخشى شيئًا.

اختطفتني عينان ، ولكنهما ليستا كالعيون ، عينان لهما سوادٌ لامعٌ كأنهما أحجارٌ من لؤلؤٍ أسودٍ مرسومتان على وجهٍ ملائكي بريئ ، ليس بارع الحُسن ، ولكنه مُريحٌ للعين والأعصاب.

لا تظن أنني أبلهٌ ساذجٌ لا خبرة لي بالنساء ولهذا وقعت ، فهي ليست كالنساء. نسيت صديقي وحفل التوقيع وكل ما عداها ، طوال الحفل لم أفعل شيئًا سوى محاولة تجاذب أطراف الحديث معها حتى أخرج منه بشيءٍ مفيد ، كرقم الهاتف أو حساب فيسبوك أو أي معلومة تمكنني من الوصول لها في المستقبل.

ولكن انتهى الحفل دون أن أحصلَ منها سوى على اسمها وكليتها ، نسيت كل خبراتي في نصْب الشباك ، أو أنها ليست كباقي الأسماك.

يكفي هذا الآن فأنا لم أعتد كتابة كل هذه الكلمات التي لا أعرف كيف تراصَّت هكذا ، سأذهب لأنام ، فأنا مرهقٌ جدًّا.

17 فبراير:

نهضتُ من الفراش بعد توسلٍ للنوم ، دام لثمانِي ساعات ، كلما رقَّ لحالي وحضر ، صرفه وجهها عني أو صرفني عنه ، عذَّبني الوجهُ الملائكي كثيرًا ، ولكنه عذابٌ لذيذٌ بطعم الحب.

حب ؟! أرى أنني بالغتُ كثيرًا ، فأنا لا أعرفها حتى أحبها ، من الممكن أن يكونَ مجرد إعجاب بجمالها.

ولكن.. هل ينبغي أن نعرف شخصًا حتى نحبه ، هل نحبه لأنه يملك من الصفات الطيبة كذا وكذا ؟ أم نحبه لمجرد الحب ؟

سأنصرفُ الآن ، لأن أمامي عملًا كثيرًا ، أمامي رحلة بحثٍ عنها أرجو ألا تطول.

27 فبراير :

لم أشعر بمعنى البحث عن الإبرة في كومة القش إلا الآن ، فأنا أبحثُ عنها منذ عشرة أيام في كومة

الفيسبوك ، بحثتُ باسمها الذي أعرفه ، وقمت بإضافة كل من يحمل اسمها في قائمة أصدقاء صديقي عسى أن تكون إحداهن.

لمتُ نفسي كثيرًا على أنني لم أستطع أن أحصل على بريدها الإلكتروني على أقل تقدير ، فهذا كان سيسهل لي البحث كثيرًا ، ولكن ما كان قد كان.

بعد أن فقدتُ الأمل في العثور عليها على فيسبوك ، قمتُ بخطوةٍ مجنونةٍ لم أتخيل أني سأقومُ بها يومًا. ذهبتُ أبحث عنها في كليتها.

28 فبراير :

ما الذي تغيَّر فيَّ خلال رحلة بحثي عنها ؟ أشعر بروحٍ جديدةٍ تحتل قلبي وتطرد تلك الروح الصدئة القديمة.

لستُ أنا...

لم أعد أشك لحظةً في أن ما أعيشه الآن هو الحب بكل معانيه ، وجهها كان بوابةً للولوج لأفكارٍ طالما دفنتها في أعماقي حتى نسيتها. أصبحت أفكر في المستقبل ، في الزواج وإنجاب الأطفال ، قد لا تصدق

أنها المرة الأولى التي أفكر فيها في هذه الأشياء وأنا في الثلاثين من عمري ، ولكن هذا ما حدث فعلا.

كنتُأمارس حياتي كما يروق لي. أعمل بوظيفةٍ جيدةٍ براتبٍ جيدٍ أنفقه كله ولا أدخر منه شيئًا ، أمتّع نفسي بالحياة دون أن يشغل المستقبلُ حيزًا من تفكيري.

ولكنها حين ظهرت في حياتي ، بدأتُ أنظر لنفسي بمنظورٍ مختلفٍ ، كرهت كوني مستهترًا لم أدخر شيئًا يُمكنني من الزواج ، ماذا فعلتْ فيَّ حتى تجعلني أتمناها زوجةً لي وأنا لا أعرف إلا اسمها.

28 فبراير :

وجدتُها.. وجدتُها..

لم أركض عاريًا مثل (أرشميدس) وأنا أصرخُ بهذه الكلمة.

اتصل بي صديقي وقال لي إن مُنظِّم الحفل أحضر له تسجيل فيديو لكل فعاليات الحفل ، قفزتُ عبر سماعة الهاتف ووجدتني جواره على الأريكة أطلب منه أن أرى التسجيل ، استغرب صديقي من طلبي ومن جلستي المتحفزة وكأني سأنقضُّ على اللابتوب ،

أصبته بالصرع حين قفزتُ فجأة وأوقفت الصورة عليها وسألته عنها.

نظر لي ضاحكًا ، وقال: «أخيرًا وقعت» ، أنكرتُ وقلت إنها لفتت انتباهي في الحفل وأعجبتُ بها لا أكثر ، مثلها مثل غيرها ، لم يقتنع بكلامي وأخبرني عن اسمها وكليتها فقلتُإنني أعرفهما وأريد وسيلةً للتواصل معها.

أخبرني باسمها على فيسبوك وأنها في قائمة أصدقائه ، كان اسمًا من تلك الأسماء الغريبة التي لا تمتُّ للحقيقة بصلة ، لا أعرفُ لِمَ يُخفي الناس أسماءهم ويرهقوننا في البحث عنهم ، فتحتُ حسابي على فيسبوك وقبل أن أبحث عنها وجدتُها أرسلت لي طلب إضافة!

كيف تطلبين ؟ مثلك لا يطلب ، بل يأمر فيُطاع.

طبعًا لم أقل لها هذا الكلام حتى لا تظن أنني «واقع» كما قال صديقي. قبلتُ طلبها ، وما أن بدأتُ أتحدث معها حتى اكتشفتُأنني غارقٌ ولست «واقع» فقط.

وجدتُ تجاوبًا منها أدهشني كثيرًا ، كانت هي أيضًا تُفكر فيَّ وبحثتْ عني مثلما بحثتُ عنها ، ليس مثلما بحثت بالضبط ، فهي بحثتْ عبر فيسبوك فقط ، وأنا بحثتُ في كل مكان.

هل من الممكن أن تكونَ الحياةُ حانيةً وجميلةً بهذا الشكل؟ هذه القاسية التي تستمتعُ بسحقنا وفرمنا أحياءً تفعل هذا؟

دعنا من هذه الأفكار ، لا أريد أن أكونَ كمن يبحث عن الحزن عند سماعه أخبارًا مفرحةً.

4 أبريل :

عُدت مجددًا للأوراق والمذكرات ، تستغربون غيبتي كل هذا الوقت ، وكأنكم لا تعرفون البشر ، نحن لا نشرك أحدًا إلا في همومنا ، أما سعادتُنا فكلنا أنانيون فيها ، لا نشركُ فيها أحدًا ، لحظاتُنا الحميمة لنا فقط.

تمَّت قصةُ الحب بسلاسة لا أصدقها ، بعد عدة محادثات بيننا صارحتها بحبي لها وصارحتني بحبها ، وكأن صوتها هو شفرة فك هذه الكلمة ، سمعتها كثيرًا من غيرها ولم تحرك فيَّ ساكنًا ، ولكن بصوتها هي أصبحت مفتاح الحياة لحياتي الميتة.

تغيَّرت حياتي بعد هذا اليوم ، أَصبحت لا تخصني وحدي ، هناك من يهتم بي وبتفاصيل حياتي ، قد يكون هذا الاهتمام مبالغًا فيه في أحيانٍ كثيرة ، وقد نسئ الفهمَ أحيانًا ونظنه تحكمًا ، ولكنه شيء رائعٌ أن تجدَ من يهتم بك دون أن تطلب ، فالاهتمامُ لا يُطلب.

اعذروا ثرثرتي ، فأنا أُحاول أن أنسى همًّا يُعكر صفو حياتي الجديدة ، أخبرتكم من قبلُ أنني لستُ ممن يبحثون عن الحزن في لحظاتهم المفرِحة ، وأنا بالفعل لم أبحث ، بل هي فكرة وُلدت داخلي.

تذكرون قولي إن سرَّ قوتي هو أنني لا أملكُ شيئًا. الآن أنا أملك ، أملكها هي وحياةً جديدةً ، ولهذا أشعرُأنني فقدتُ سرَّ قوتي وبدأت أخاف.

«ده أنا عمري ما قلت إن أنا خايف غير بعد ما قلبي اتمناكي»

سمعتُ هذه الأغنية آلاف المرات ، ولكنها المرةُ الأولى التي أشعر فيها بتلك الكلمات ، فعلًا لم أشعر بالخوف إلا عندما أصبحتْ هي حياتي. خائفٌ عليها ومنها ومني ومن الدنيا ، أَصبحتْ هي نقطة ضعفي وخوفي ، خسرت ميزتي التي كانت تجعلني أواجه

الدنيا فاتحًا صدري غير مبالٍ بأحد. حبها عَقَّلني وجعلني أتحرك بحسابٍ وأدرس كل قرار قبل أن أنفذه.

فكرت في أن حياتي السابقة كانت أجمل ، بلا هموم وبلا قيود ، ولكن هذه الفكرة تلاشت سريعًا عندما أدركتُ أنني لم أكن حيًّا قبل أن أحبها ، هي ضعفي وخوفي ، وهي أيضًا قوتي ، بتأكيدها الدائم أنها لي ومعي دائمًا ، هي الحِصن الذي أتكورُ فيه عندما أهرب من الدنيا ، أعودُ لوضعي الجنيني وأختبئ في حضنها وكأنني عُدت لرحم أمي الدافئ.

حتى لو كانت هي ضعفي وخوفي ، أحبها وأحب خوفي وضعفي.

16 فبراير :

احتفلنا اليوم بمرور عامٍ على عَلاقتنا ، دون أن تتذكر هي ، كنا نجلس في الكافيتريا ، وأحضر النادل «التورتة» - كما اتفقنا - وانسابت موسيقى هادئة احتفاء بهذه المناسبة ، نظرتُ لها بحب وأنا أعطيها هديتها ، ولكنها قابلتْ نظرتي بنظرةٍ حائرةٍ ، فهي لم تُدرك ما المناسبة التي أحتفل بها ، تجاوزتُ هذه الحيرة وتجاوزتُ نسيانها ، وأخبرتُها وأنا أقدم لها الهدية.

أحيانًا أشعرُ أنني أنا المرأة وهي الرجل ، فأنا الذي أتذكر هذه المناسبات وهي مَن لا يهتم بها ولا يتذكرها ، ولكن لا بأس ، في الحب كلٌّ يُكمل الآخر.

10 أبريل :

يبدو أن الحياة خرقت الهدنة التي بيني وبينها وبدأت تكشفُ عن وجهها القبيح الذي لم أنسه.

أصبح شعارُ المرحلة هو: «مشاجرة كل يوم». لم أكن أعلم أنها موهوبةٌ في افتعال المشاجرات وتغذية نارها بأسبابٍ لا تنتبه لافتعالها وقتها بسبب غضبك ، وقد تقول أشياء تتلقفها هي بمهارة لتكون مادةً لشجارٍ جديد.

والطريفُ أنني أنا من يعتذر لها في النهاية ، لأنهي المشاجرة ولأني لا أحب أن أراها حزينةً أبدًا ، تركتها يومًا دون أن أصالحها ولم أستطع النوم ، بكيتُ لأنني تركتها تنام محتضنةً الحزن وحاولتُ الاتصال بها عدة مرات ولكن جوالها كان مغلقًا ، بقيتُ مستيقظًا حتى فتحت جوالها واتصلت بها واعتذرتُ لها.

ولكن المشاجرات فعلًا زادت عن حدِّها وأدركت متأخرًا أنها مفتعلةً ولا أعلم السبب الحقيقي لهذا المزاج

السيئ الذي تعيشه ، هل هو الحسد كما يقول الناس ؟ أم أنها تواجه مشكلةً لم تخبرني بها ؟ ولكن كيف لا تخبرني وقد أسَّستُ عَلاقتَنا على الصراحة والوضوح ، كشفتُ لها نفسي كلها لأول مرةٍ في حياتي ، فقد كنتُ ، وما زلتُ ، مقتنعًا بأننا لا نكشفُ إلا جزءًا صغيرًا من شخصيتنا ، ولكنْ معها هي أزحتُ اللثام عن شخصيتي كاملةً حتى تراها بوضوح ، وهذا حقها ، فلا بد أن تعرفَ حبيبها جيدًا.

ولكنْ هل هي صريحةٌ معي أيضًا ؟

15 أبريل :

أنا مرهَق..

كثرةُ المشاجرات تستهلكني نفسيًّا وعصبيًّا ، وكأن استهلاك العمل لهما غير كافٍ.

بحثتُ وراء أسباب المشاجرات المتكررة ، فتارة يكون السببُ أن أمها بدأت تشك فيها من كثرة مكالماتها الهاتفية ، وتارة أنها سئمت عَلاقتنا الخفية عن أهلها ، وأنها تُريد أن يرتاحَ ضميرُها ، أخبرتُها أنني لست مستعدًّا ماديًّا للزواج وأنني قريبًا سأخطبها كما

اتفقنا منذ بداية عَلاقتنا ، ولكنها أخبرتني أنها لا تُريد أن تنتظرَ يومًا آخر.

عرضت عليها أن أقابل والدتها ليرتاحَ قلبُها قليلًا ، أخبرها أنني أريد أن أتزوج ابنتها وأنني أحتاجُ بعضَ الوقت حتى أتقدم رسميًّا. سخرت مني عندما عرضت عليها هذا الحل وقالت إنني لستُ في أوروبا ، على الرغم من إخباري لها أن عددًا من أصدقائي قاموا بهذا الأمر وكان مقبولًا ، إلا أنها رفضت ، بل رفضت حتى اقتراحي بأن أتقدم لخطبتِها متعللةً بأن أهلها لن يوافقوا لأنني لستُ جاهزًا.

لم أعد أفهم شيئًا.

1 مايو :

اختفتْ..

هكذا بلا مقدماتٍ ، أو كانت هناك مقدماتٌ ولكني كنتُ أبله فلم أنتبه لها,

أغلقتْ جوالها وحساب فيسبوك وكل ما يُمكنني من الوصول لها ، بحثت عنها كالمجنون ، وقفتُ بالساعاتِ تحت بيتها وحاولت الاتصال بكل من أعرفهم من صديقاتها ، ولكن بلا فائدة.

رحلتْ عن حياتي فجأةً كما دخلتها فجأةً ، رحلتْ ، وتعلقت الحياةُ بذيل ثوبها ورحلتْ معها.

لم أمت ، ولكنني لستُ حيًّا ، فأنا الآن في برزخٍ بين الحياة والموت ، أفعل كل شيء ولا أفعل شيئًا ، فقدتُ الإحساس بالألوان والروائح ، كل شيء أصبح عديم اللون والرائحة.

أكاد أجن ، ما الذي حدث ؟ ما الذي دفعها لتركي هكذا ؟

هل وجدتْ شخصًا آخر ؟ ولكن لا ، فهي ليستْ عاهرةً كي يُعجبها شخصٌ آخر وهي معي فتتركني لأجله ، لا بد أنني أنا المخطئ ، ولكن فيم أخطأتُ ؟ وحتى لو أخطأتُ ، أليس من حقي عليها أن تُوضح لي خطأي وأن تُعاتبني ؟ لا تتركني وترحل هكذا.

سأظل أبحثُ عنها حتى أفهم ، فلقد بحثتُ عنها شهرًا وهي لا تُمثل لي شيئًا ، فكيف إذا كانت حياتي ؟

1 يونيو :

لا أثر لها ، بحثتُ حتى ملّني البحثُ ، ولم أجدها.

كرهت حياتي من دونها ، وكرهتها هي أيضًا ، كيف لها أن تُقرر فجأةً أن تُنهي عَلاقتنا ؟ كأنني خيالُ مآتةٍ لا رأي له ؟

لن أبحثَ عنها مرةً أخرى ، فكما يُقال: «إن أردتَ شيئًا بشدةٍ فأطلق سراحه ، فإن عاد إليك فهو ملكٌ لك إلى الأبد ، وإن لم يعد... لا لا.. لا أريد أن أفكر في هذا الاحتمال.

10 يونيو :

«إن أردت شيئًا بشدةٍ فأطلق سراحه»

لا بد أن قائل هذه المقولة لم يعرف الحب من قبل ، أو أخطأ فهمه ، أو ربما لا يريد خيرًا بها.

فكيف تُطلق سراح شيء تريده بشدة ؟ إذا أردتَ شيئًا بشدةٍ فتمسك به لآخر نفَس ، فإطلاقك سراحه وعدم اهتمامك به سيجعلك تفقده إلى الأبد ولن يعود أبدًا.

ولكني أهتم وأبحث ولم أطلق سراحها ، فهل تعودُ لي ؟

15 يونيو :

أضرمت النيران في كل ما يتعلق بها فقد قال لي الطبيب إنه لا بد من تنظيف الجرح حتى يندمل. لا صور ، لا رسائل ، لا هدايا ، لا هي.

لا حاجة بي لمن لا يُريدني ، اكتفيت من الإهانة وذل التوسل ، كفاني كل ما رأيت.

15 يوليو :

كيف لطائرٍ خرج من بيضتهِ ، شاهد العالم وتشبع بألوانه وروائحه أن يعود لبيضته مرةً أخرى ؟ حتى لو حاول العودة فسيجد حجمه أكبر من حيز البيضة ولن يستطيع دخولًا.

كفاني مكابرةً وعنادًا ، أريدها ، أريد أن تعودَ لي لتعودَ معها روحي ، حاولتُ الاتصال بها ثانيةً بعد أن قررتُ التوقف ، لم يكن جوالها مغلقًا ولكنها لم ترد ، اتصلتُ بها من عدة أرقام مختلفة ولا رد ، أرسلتُ لها الرسائل أتوسل فيها أن تعودَ لي ولا رد.

أهنتُ نفسي وكرامتي مرةً أخرى ، وبلا طائل ، ولكن من قال إن في الحب كرامة ؟

20 أغسطس :

قابلتُها اليوم.. رأيتُها مصادفةً في مكتبة ، وقبل أن تتملكني الفرحةُ نظرتُ ليديْها ، لأجدَ محبسًا ذهبيًّا في يدها اليمنى.

هكذا الأمرُ إذن.. تركتني من أجل أن ترتبطَ بشخصٍ جاهزٍ للزواج ولن يجعلها تنتظر ، من قال إن من تترك حبيبها لتتزوجَ شخصًا مستعدًّا عاهرة ؟

هي براجماتية بحتة ، ما الذي يجعلها تنتظر شخصًا يحبها ؟ ما قيمة الحب حين يُقارن بالمنفعة ، لا تقلْ لي من فضلك إن هناك من أجبرها على هذا الارتباط ، فقد مضى عهد الإجبار.

هي ككل البنات ، براجماتية ، أحبَّت وعاشت عامًا من السعادة الجميلة الخفية ، ثم سئمتْ ووجدتْ شخصًا مستعدًّا يخطب ودها فوافقت. لا أستطيعُ أن ألومها لأنها فكرت بعقلها.

وُضِعت أسطرُ النهاية لقصتي التي لم أجرؤ أن أنهِيها ، كالعادة كانت هي أيضًا الفاعل وكنتُ أنا المشاهد ، ولا أريد أن أقول المفعول به.

سأعودُ لحياتي القديمة وأهجر الورقة والقلم للأبد ، ادعوا لي بقلبٍ صافٍ ألا أعود لهما ، فعدم عودتي يعني أن حياتي مستقرةٌ ولست حزينًا ، وكفاني مكسبًا أنني خسرتُ كل ما أملك وعدتُ من جديدٍ لا أخشى شيئًا.

وأنت يا حبيبتي سابقًا ، هذه قصة حبي لك ، قصة حبي الوحيدة ، أصبتِها أنتِ بالشلل الدائم ، وأطلقتُ أنا عليها رصاصة الرحمة من قلمي ، كفنتها في أوراقي وسأواريها الثرى ، فإكرام الميت دفنه!.

وتنام لتراه

فتحتْ عينيْها راسمةً على وجهها ابتسامةً أعادت تشكيلَ ملامحها وملامح كل شيء حولها ، صبغت كل شيء بصبغة الحب الصافية ، كأنها من الحور العين ترقدُ في الجنة ، كيف لا وقد قال لها ذو العينين الرماديتين أخيرًا «أحبك».

عندما رأته للمرةِ الأولى غضبتْ وسألتْ نفسَها عن هذا الغريب الذي اقتحم عليهاعالم أحلامها ، ألا يكفيها هؤلاء السخفاء الذين يقتحمون واقعهاحتى يقتحمَ أحدهم عالمها الخاص ؟

ولكنه لم يكن مثلهم ، عندما اقتحم عالمَ أحلامها للمرة الأولى جلس بعيدًا عن موقع هبوطها كي لا تفزع من رؤيته ، وترك لها الوقت الكافي لتهبط وتبدأ

بالتجول في عالمها ، عندها وقف أمامها مبتسمًا محافظًا على مسافةٍ مريحةٍ نسبيًّا بينهما ، لم يستغرق غضبها لرؤيته سوى لحظات ، غرقت بعدها في نظرات الإعجاب التي تسيل من عينيه ، إعجاب بها وليس بجسدها ، إعجاب خالٍ من الشهوة المقززة.

ولكنها ارتبكت عندما تذكرت أنها بملابس النوم دون حجاب ، وحاولت تغطية كتفيْها وشعرها بيديْها. ولكنها رأته غضَّ بصره لما لاحظ ارتباكها وأشار بيده فانتصب بينهما حاجزٌ أبيض يحجبها عنه ، زال عنها ارتباكها بعدما رأت تصرفه ، وعرفت أخلاقه من خلاله ، وشعرت أنه حتى لو جلست معه بهذه الملابس دون الحاجز فستكون مرتاحةً دون خوف.

حاول أن يتجاذب أطراف الحديث معها ، كانت تتكلم معه قليلًا وتفكر كثيرًا في هذا النموذج الفريد من الرجال ، رجلٌ لا يراها مجرد جسدٍ يشتهيه ، تلك النظرة الحقيرة التي كانت السبب الرئيس في انعدام عَلاقتها بالجنس الآخر ، دائمًا ما كان يأتيها زملاؤها في الجامعة مدعين أنهم يطلبون صداقتها ، يتحدثون معها وهم ينظرون لنهديْها ، وعندما تمشي تشعر بعيونهم تخترق ملابسها ، لم تجد من يتعامل مع عقلها وروحها ، لم تجد من يحدثها وهو ينظر في عينيْها

فقط ، من يغض بصره وينبهها إن انزاح الحجاب كاشفًا عن جزءٍ من رقبتها أو أعلى صدرها ،وعندما وجدته غرقت في حبه حتى النخاع.

كانا يقضيان الوقت جالسيْن تحت الشجرة أو متجوليْن في الحديقة ، يتحدثان ويتأملان حتى يتملل جسدها السخيف بعد أن ينال كفايته من النوم فتفارقه دون أن تنالَ كفايتها منه. وتقضي ساعات يقظتها تُمارس حياتها اليومية بطريقةٍ آليةٍ ،دون عقلها وقلبها ، فهما دائمًا معه ، تذهب للجامعة ، تدرس وتُجالس صديقاتها ، أو تتنزه معهن ، أو تجلس مع أمها ، دون أن تستمع بأيٍّ من تلك الأشياء التي كانت تستمتع بها قديمًا ، كانت كمسافرٍ ينتظر موعد إقلاع طائرته ، وما أن تنام أمها حتى تستعد هي للسفر بالملابس الأنيقة والزينة كي تكون في أبهى صورة ، وتذهب إلى مطارها وتقلع إلى حيث ينتظرها حبيبها.

مرَّ شهرٌ من أسعد شهور حياتها معه ، ثم دقت أجراسُ الإنذار معلنةً اقتراب موعد الامتحانات ، فأصبحتْ مجبرةً على تقليل عدد ساعات نومها كي تستعد لها جيدًا ، جلست قبل النوم تحاولُ ترتيب أفكارها وترتب الكلام الذي ستقوله له كي لا يغضب منها ، وعندما التقته وجدته حزينًا ، سألته عن سرِّ حزنه

فأجابها بأنه حزينٌ بسبب اقتراب موعد امتحاناتها وبالتالي تقليل عدد ساعات لقائهما اليومي ، ولكنه متفهمٌ لهذا ولا بد لها أن تتفوق كعادتها وإلا شعر بأنه السبب في انحدار مستواها الدراسي.

طبعت قُبلةً على خده عندما وجدته قد كفاها معاناة الشرح والقلق ، ثم تورد وجهُها وأطرقت برأسِها وقد أحسَّت أنها اندفعت وقامت بما لا يليق ، ولكنه رفع رأسَها إليه وقبلها مخبرًا إياها بأنه لا داعي للخجل ، فهما الآن شخصٌ واحد.

مرَّت فترةُ المذاكرة والامتحانات عليها كأنها دهرٌ ، كانت تذاكر بنصف وعي هو كل ما استطاعت استدعاءه وتركت نصفه الآخر معه ، أصبحت تقابله في زياراتٍ خاطفةٍ تتخللها اضطرابات فترة الامتحانات المعتادة. بعد أن أنهت آخر امتحان لم تتنزه مع صديقاتها كعادتها ، بل ذهبت للفراش مباشرةً كي تقابله وتريح روحها بالخلوة معه ، ظلت فترةً طويلةً تستجدي النوم كي يأتي ، ولكنه كان قاسي القلب لم يأت إلا بعد أن دفعت نصف خزائن دموعها ثمنًا له.

عانت في الأيام التالية مع تكرار حالات الأرق وتقطُّع ساعات نومها ، ولم تجد حلًّا لهذه المشكلة سوى أن

تجرب المنوم ، وبمرور الوقت أصبحتْ لا تنام إلا به ، تتناول القرص وتُعد نفسها للقائه.

في إحدى المرات ، كانا يتسامران عن روايةٍ رومانسيةٍ قرآها معًا ، وإذ بالمكان كله يهتز كأنما أصابه زلزالٌ عنيفٌ ، وشعرت بيدٍ تسحبها من عالمها ، وتلقي بها في عالم الواقع ، فتحتْ عينيْها فوجدت نفسها جالسة في الفراش تنظرُ للفراغ وتفكر ، لا تعلم من أين أتت تلك النظرة الواقعية التي ارتدتها الآن وجعلتها تُفكر بشكلٍ مغايرٍ في ما تعيشه ، ظلت تسألُ نفسها عن حياتها ومدى رضاها عما وصلتْ إليه الآن ، ظلت تفكر وتبكي من حيرتها وقلة حيلتها حتى غلبها النومُ مرةً أخرى ، وعندما عادت لم تجده.

هرولت بحثًا عنه ، كأنها تسعى بين الصفا والمروة ، لكن عيون زمزم لم تتفجر حتى أنهكها السعي ، جلست تحت الشجرة ضامةً ركبتيْها لصدرها تبكي بحرقة ، ذبلت الزهور والأشجار ، أصبحت حديقتها عاريةً جرداء ، ظلت تبكي متوسلةً كي يعودَ حبيبها ، أو تستيقظ إلى الأبد.

مرَّت عدة أيام تبحث عنه ولا تجده ، كرهت حياتَها وثقل الهم في قلبها دون أن تملك رفاهية

البوح بما يقتلها لأحد ، كرهت النوم لأنه أصبح يزيد من أوجاعها ، أصبحتْ تجلسُ مع الجميع ساهمةً مما نشط وساوسهم لتعيث في عقولهم ويزيد قلقهم عليها ، ولكنها لم تأبه لهم.

عاد.. هكذا فجأةً كما رحل فجأة ، ذهبت لأطلال حديقتها فوجدتها عادت جنةً كما كانت ، ووجدته جالسًا تحت الشجرة ينتظرها ، اندفعت نحوه بغضبٍ لتضربَه وتُفرغ كل شحنتها ، ولكن ما أن اقتربت والتقت عيناها بعينيْه اللتين اختلطت فيهما نظراتُ الاشتياق بنظرات الحزن حتى سكنت ملامحها فجأةً واستبدلت الضرب بالدموع ، جلست أمامه مستفسرةً عن سرِّ غيابه ، فأخبرها أنه شعر بأنه يُدمر حياتها ، وأنها أصبحت لا تريده ، ولكنه عانى كثيرًا في البعد عنها وفي النهاية لم يستطع الصمود فعاد.

ازدادت حدةُ بكائها بعد أن أنهى كلماته ، وتوسلت له ألا يفعل هذا مجددًا ، فلا معنى لها أو لحياتها سواه ، عادت لها روحها مع لمسات أنامله لخدها لتمسحَ دموعها ووعدها بألا يتركها أبدًا ، وقررت أن تقضي أغلب أوقاتها معه ، تركت كل شيء وأصبحت عَلاقتها بواقعها فقط هي الفترة التي يرفض جسدها النوم فيه لأنه

أصيب بتخمةٍ من كثرة النوم ، وتستغل هذه الفترة في القيام بما هو ضروري للحياة.

تدريجيًّا انسحبت من حياتها تمامًا وغرقت بكل كيانها في عالمها ، لم تعبأ كثيرًا لغضب صديقاتها منها لأنها أخيرًا أصبحت مرتاحةً لا تحتاج لارتداء أقنعة ، انتهت مرحلة كتمان الأفكار وعدم البوح بها خوفًا من سخرية صديقاتها اللاتي على الرغم من قربهن منها لا يفهمنها ، فهن عادياتٌ ضيقات الأفق ، وهي مثقفة حالمة ، تحلم بحياة تصنعها كيف شاءت.

أصبحتْ كعازفٍ يظن نفسه أوركسترا كاملةً ، يظن أنه يعزف لحنًا متناغمًا لا نشاز فيه ، حتى استيقظت إحدى أنفسها ثانيةً ذات يوم بنغمةٍ نشازٍ عكرت صفو لحنها ، لا تعلم أي نفس تلك ، اللوامة أم الأمَّارة ، ولكنها نفسٌ لعينةٌ وكفى ، جعلتها تُعيد التفكير في حياتها من جديد ، بالنظرة القديمة الواقعية ، فوجدت نفسها عالقةً في اللاشيء ، وأنها أصبحتْ نصفين ، نصف يحلم ، ونصف يعيش الواقع مضطرًا حتى يعود للحلم مرةً أخرى ، ولم تفلح هذه المرة في إقناع نفسها بما أقنعتها به في المرة الماضية.

ظلت تقلب شريط الأقراص المنومة بين أصابعها ، تنظر إليه عله يُساعدها ، لا بد من شاطئٍ ترسو سفينتها عليه ، إما هنا وإما هناك ، لم تكن تظن أن الاختيار بهذه الصعوبة ، كانت تظن الأمر محسومًا ، ولكن صراع أنفسها داخلها صعَّب الموقف عليها أكثر ، ولكن لا مفر.

*****

جلستْ أمام مرآتها تُداعب خصلات شعرها ، وتنظرُ للشعيرات الذهبية التي انهزمت منذ سنين أمام هجوم الشعيرات الفضية الكاسح ، ابتسمت فازدادت تلك الشقوقُ حول شفتيْها وعينيْها ، أمسكت بأدوات التجميل لتتزين ، ثم تركتها من يدها قائلةً لنفسها: «لا داعي للتزين ، فأنا هناك أكون جميلةً كما أريد ، دون زينة». ارتدتْ فستانها الذي يُحبه كثيرًا وابتلعت القرص المنوم ، رقدت في الفراش محتضنةً باقة ورودٍ وعلبة تحوي ساعة يد لتقدمهما له في عيد ميلادهما الخمسين.

دار تويا للنشر والتوزيع